مالك بن نبي

مشكلات الحضارة

الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان



دار الفكر
دمشق - سورية

مالك بن نبي

مشكلات الحضارة

الصراع الفكري في البلاد المستعمرة

إصدار
ندوة مالك بن نبي

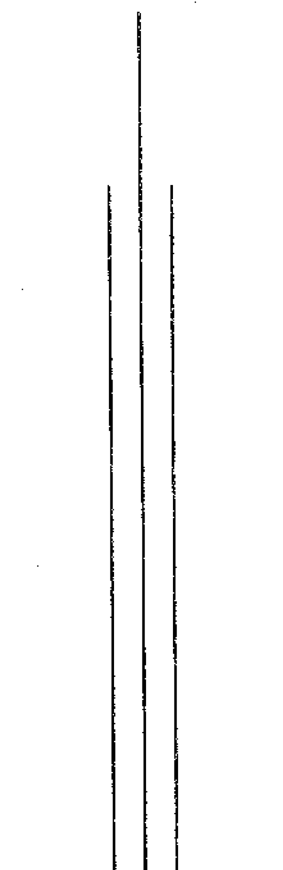
١٤٠١هـ

١٩٨١م



دار الفكـر ـ دمشـق ـ ساحة الحجاز

ص . ب (٩٦٢) ـ برقياً (فكر) هاتف (١١١٠٤١)



الصّراع الفكري

في البلاد المستعمرة

بسم الله الرحمن الرحيم

في عام ١٩٧١ ، ترك أستاذنا مالك بن نبي ، رحمه الله ، في المحكمة الشرعية في طرابلس لبنان ، وصية سجلت تحت رقم ٦٧/٢٧٥ في ١٦ ربيع الثاني ١٣٩١ الموافق ١٠ حزيران ١٩٧١ ، وقد حملني فيها مسؤولية كتبه المعنوية والمادية .

وتحملاً مني لهذه الرسالة ، ووفاءً لندوات سقتنا على ظمأ صافي الرؤية ، رأيت تسمية مايصدر تنفيذاً لوصية المؤلف بـ « ندوة مالك بن نبي » .

والتسمية هذه ، دعوة إلى أصدقاء مالك بن نبي وقارئيه ، ليواصلوا نهجاً في دراسة المشكلات ، كان قد بدأه .

وهي مشروع نطرحه كنواة لعلاقات فكرية ، كان رحمه الله يرغب في توثيقها .

وإنني لأرجو من أصدقاء مالك وقارئيه ، مساعدتنا على حفظ حقوق المؤلف في كل ما ينشر بالعربية أو الفرنسية مترجماً من قبل المترجمين أو غير مترجم . فقد حمّلني ، رحمه الله ، مسؤولية حفظ هذه الحقوق ، والإذن بنشر كتبه . فإن وجدت طبعات لم تذكر فيها إشارة إلى إذن صادر من قبلنا ، فهذه طبعات غير مشروعة ، ونرجو إبلاغنا عنها .

طرابلس لبنان ١٨ ربيع الأول ١٣٩٩
١٥ شباط (فبراير) ١٩٧٩

عمر مسقاوي

تَنْبِيه

هذه أول محاولة للمؤلف في كتابة اللغة العربية مباشرة ، فشأنها شأن كل محاولة : إنه لا يمكنها أن تكون في صورة مرضية •

وإذن فلا غرابة أن لا يجد القارىء في هذه الصفحات الرونق الأدبي الذي تعوده عند كتاب العربية ••• وعليه فاذا حصل له ملل خلال القراءة ، رغم الجهد الذي بذله الاستاذ عمر مسقاوي الذي تفضل بمراجعة الأصول من أجل تقويم الأسلوب اللغوي ، فإن هذا الملل أمر متوقع •

غير أن القارىء العربي سوف يجد تعويضاً عن ذلك من ناحية أخرى • إذ ربما يكون أول من يقرأ ما يكتب في هذا الموضوع • ولا يفوتنا في هذا التنبيه أن نلفت نظر القارىء من الآن إلى ما نعني بالأدب التقدمي كمصطلح تناولته هذه الدراسة في أكثر من مكان : إننا نعني الأدب الذي ظهر في بعض الأوساط الفكرية في البلاد الأوربية ، ويمثله في فرنسا كتاب مختلفون في الاتجاه السياسي مثل مورياك أو روبرت برا ، من اليمين وسارتر أوفرنسيس جانسون من اليسار •

المعادي ٢/٥/١٩٦٠

م• ب• ن•

مَدْخَــل

هناك أشياء لا يجدي الحديث عنها إن لم يكن مستمداً برهانه من تجربة شخصية تضيء الموضوع من الداخل بضوئها الخاص .

والصراع الفكري في البلاد المستعمرة واحد من تلك الأشياء ، فليس للقارىء، إذن أن يتعجب إن رأى كاتباً يطرق هذا الموضوع من زاوية تحددها له تجربته الخاصة بما في هذه الكلمة من إشارة الى بعض التفاصيل من حياته الشخصية ، ولا مجال هنا لذكر علة هذا الموقف للكاتب في البلاد المستعمَرة لأن الأمر يستدرجنا الى الحديث الطويل عن أوضاع البلاد ومقوماتها الفكرية ، وربما سوف يأتي هذا الكلام أو بعضه في محله خلال هذه الدراسة .

فيكفينا أن نقول في هذا المدخل إن الكاتب مضطر إلى هذا الموقف بطبيعة الموضوع ، خصوصاً إذا ما اضطرته الظروف القاسية للدفاع عن أفكاره في فترة معينة ، عندما يمر الصراع الفكري بأزمة خاصة كما يحدث في البلاد المستعمرة حيث تجهل غالباً أمر الصراع الفكري بينما هو يدور في أرجائها ، ومن أجلها .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نرى أن الكاتب التقدمي ، في الخارج ، يجهل هو الآخر هذا الصراع ، فنراه مثلاً يشارك في المعركة ضد الاستعمار بجانب المستعمَرين ، ولكنه يشارك فيها مادامت في النطاق السياسي ، وسرعان ما ينعزل عنها حينما تأخذ طابع الصراع الفكري كأنما يضيق صدره منها في طابعها الجديد أو أنه بعبارة أخرى ، يرى أن من حق الرجل المستعمر أن يدفع عن نفسه مادام دفاعه في الحقل السياسي ، ولكنه حينما ينتقل دفاعه إلى الميدان الفكري ، يرى أن هذا الرجل قد دخل مكانا لا حق له في دخوله .

ومن الممكن أن يفسر هذا الوضع بالجهل الذي يحيط بالصراع الفكري في البلاد المستعمرة سواء من ناحية أهل البلاد ، أو من ناحية الكتاب التقدميين في الخارج ، ولكن التجربة تدل على أن هذا الجهل قد يكون مصطنعا ، بصورة أم بأخرى ، حيث أن القيادة السياسية في البلاد المستعمرة تتخذ من معركة الافكار ــ ولأسباب معينة ــ موقفاً حيادياً أو سلبيا ، وأحيانا معاديا •

كما يتخذ الكاتب التقدمي ــ في الخارج ولأسباب أخرى ــ نفس الموقف ، فتراه وهو يخوض المعركة ضد الاستعمار إذا به كأنه ينحاز إلى صفوفه حينما تتخذ هذه المعركة صبغة فكرية •

ولو حللنا هذا الموقف الغريب لوجدنا أن هذا الكاتب التقدمي إما أنه يخضع لاعتبارات ملقنة أو لعقد موروثة ، وهو في كلتا الحالتين يصبح موقفه إزاء الصراع الفكري في البلاد المستعمرة موقف العداء أو الحياد ، فحينما يقدم كاتب من هذه البلاد كتابا للطبع ، ترى الكاتب التقدمي مثلا يعلن عنه في صحيفته بثلاثة أو أربعة أسطر « كتاب اتخذ صاحبه موقفاً يناقض موقف الأحزاب الوطنية » •

فإذا ما تصورت أن هذه الصحيفة توزع على نطاق واسع في البلاد المستعمَرة التي تدور فيها المعركة الفكرية فسوف تدرك مدى تأثير هذه الجملة الغامضة على مصير الكتاب ، خصوصاً إذا ما تابعت الصحيفة خطتها بعد صدوره ، فنشرت مثلا قائمة لـ « الكتب القيمة التي صدرت خلال الشهر » وتناست أن تذكره من بينها •

وهكذا نشاهد موافقات غريبة بين بعض مواقف الكتاب التقدميين وما يخططه الاستعمار ، حتى يرتاب من يشاهدها فيصبح يتساءل : هل هي مجرد موافقات أم هي على العكس اتفاقات تحمل طابع الصراع الفكري في أغمض صورته •

مهما يكن من أمر فليس موضوعنا دراسة هذا الجانب من المشكلة حيث ينبغي لنا في دراستها أن نأخذ في اعتبارنا معطيات الشخصية التقدمية وخصائصها،

مما لا يدخل في سياق حديثنا ، غير أنه لا بأس في أن نذكر للقارىء بعض تفاصيل مما يمكن أن نسميه « الأدب التقدمي » دون أن ننسى مجابهته لعمليات الاضطهاد في الجزائر مثلا ، أو في أفريقيا الجنوبية .

ففي الجزائر نشهد بأن الكاتب التقدمي يقوم بالدور القيم في فضح وحشية الاستعمار في البلاد المستعمَرة وكشفها للرأي العام العالمي .

ولكن هذه الملاحظة لا تزيد موقف الكاتب التقدمي إلا غرابة حينما نراه من ناحية أخرى يلتزم الصمت أمام بعض الجرائم الاستعمارية ، بينما يثيره ، غالباً ، ما هو أقل منها ، فيدهشنا موقفه في وقائع ذات دلالة : فقد رأينا مثلاً ، منذ سنة ، تلك الفاجعة التي عنونتها الصحافة ، حتى في البلاد العربية ، بـ « خطف خائن كبير في الجزائر » وكانت بهذا النبأ ، المنقول عن شركة أنباء أميريكية ، تشير إلى مأساة مؤلمة وجريمة لا تغتفر ارتكبها الاستعمار ضد فضيلة الشيخ العربي التبسي الذي اختطفته فعلا اليد السوداء في العاصمة الجزائرية حيث انقطعت أخباره من ذلك الحين .

ومن تتبع أنباء هذه المأساة يرى أنه قد قرأ في الصحافة نبأ اختطاف « الخائن الكبير » في سطرين ، ثم ثلاثة أسطر للتدارك بعد أسبوع وكان التدارك مائعاً جداً ، حتى إنه لم يزل الشبهات التي ألقاها في الأذهان النبأ السابق ، كأنما اليد التي حررت هذا التدارك زميلة اليد التي حررت نبأ الاختطاف وزميلة اليد التي اختطفت .

وهكذا نرى : ثلاثة أسطر تشوه اسماً محترماً ، وسطران لتدارك مريب... ثم يسدل الليل ظلامه مرة واحدة على مأساة هذا الشهيد الذي قام في وجه الاستعمار خلال ثلاثين سنة .

وهكذا يسود الصمت في تلك الصحافة التقدمية ، ذات اليمين أو ذات الشمال ، بينما هي ملأت العالم صراخاً حينما اعتقل وحوكم الكردينال مندزانتي .

وها هو رجل آخر ، ذلك الصحفي هنري علاج الذي اعتقلته اليد نفسها التي اختطفت الشيخ العربي التبسي ، وعذبه نفس الجلادون ، ولكنه لا زال حيا يرزق وينشر عن تعذيبه كتاب تذيع الصحافة التقدمية صيته في أرجاء العـالم ويبلغ طبعه في البلد الواحد ــ مثل بريطانيا العظمى ــ الملايين من النسخ ، ثم تعرضه الولايات المتحدة في معرضها في موسكو خلال شهر أغسطس سنة ١٩٥٩ • وهو لكاتب شيوعي !!!

أليس لمن يتتبع هذه الأمور ببعض الاهتمام الحق في أن يتساءل هل هذه مجرد موافقات أم هي محاولات لتحقيق أهداف معينة أو بعبارة أخرى : هل هي اتفاقات خاصة بالصراع الفكري ؟•

إن شعورنا بمأساة الرجل الذي يعتقل ويعذب واجب ، ولا بد أن نحني الرؤوس أمام كل محنة إنسانية ، ولكنه من واجبنا أيضاً أن تتمسك بحرية الفكر حتى أمام الموت مع خشوعنا إزاءه •

إن تفاصيل كالتي نذكرها قد تأتي في صـور متنوعة في موقف الكاتب التقدمي • وفي مستويات مختلفة •

إنني أذكر ما اعتراني من العجب خلال مطالعة أخيرة ــ وهي دون أي شك من أفيد مطالعاتي ــ فقد تتبعت خطوة خطوة ، فكرة الكاتب ملاحظا فيها أكثر من مرة وجوه التشابه بين أفكاره وأفكار أودعتها في كتاب نشرته منـذ زمن غير بعيـد •

وكان العجب يعتريني خلال هذه المطالعة إذ أنني لم أر الكاتب التقـدمي يذكر ــ ولو مرة واحدة ــ كتابي ، حتى حينما يكون وجه التشابه بيننا لا يمكن أن يفسر بمجرد الصدفة • بل كنت أراه يلجأ في حالة كهذه إلى التعبير عن الفكرة المشابهة بألفاظ أخرى ، ثم يتبعها بتعليق فيقول مثلاً : « إنه لمن فضول القول أن نقول كذا وكذا •• » وكأنه يحاول بهذا التعليق أن يجعل التشابه من طبيعـة الأشياء حتى يبعد عن ذهن القارىء التساؤل في شأنه •

وهكذا تصبح الفكرة المستعارة من مؤلف من أبنـاء المستعمَرات شيئاً لا يحتاج إلى ذكر صاحبه لأنه من الأشياء المتداولة ، حسب التعليق الذي علق به الكاتب التقدمي الذي استعارها ، وفي مكان آخر لا يلجأ هذا إلى مثل هذا التعليق وإنما هو يبدل الألفاظ التي تعبر عن الفكرة : فقد تحدثت مثلا عن الشـعوب الأفريقية الأسيوية ووصفتها بأنها تكوّن « الطبقة الكادحة في العالم » فنـرى الكاتب التقدمي يبدل هذه العبارة بأخرى فيقول « الطبقة الكادحة العالمية » .

وليس لنا بعد هذا أن نصدر ــ بمقتضى هذه التفاصيل ــ حكما عامـاً بخصوص الأدب التقدمي والكتاب التقدميين فاننا نجد في مواقفهم في أوربا من سمو الأفكار ، وعلو النفس وطيبة الخاطر ، وشجاعة الفؤاد ما هو جدير بالاحترام من كل إنسان يحترم نفسه . وإنما كان علينا في هذا المدخل أن ننبه القارىء الذي لم تسبق له خبرة بالموضوع ، إلى بعض الجوانب المجهولة من الصراع الفكري في البلاد المستعمرة .

الفصل الأول

عموميات عن الصراع الفكري

يجب علينا أن نرجع إلى الوراء شيئاً ما لنرى كيف بدأ الصراع الفكري يأخذ طابعه في البلاد المستعمرة .

يجب أن نرجع ـ على الاقل ـ نصف قرن إلى الوراء في مجرى الوعي الإسلامي أي إلى اللحظات الأولى التي بدأ يستيقظ فيها حوالي سنة ١٩٠٠ : إن الستار يرتفع على المشهد الأول من المسرحية التي نحاول هنا وصف بعض مقاطعها .

ويمكننا أن نتصور المسرح الذي يرفع فيه الآن الستار في بلد معين حتى يكون لنا أكثر إلمام بالميزات التاريخية والنفسية التي تسم الأشخاص الذين يقومون بدور في هذه المسرحية ، مع العلم بأنها ميزات ذات طابع عام يشمل العالم الإسلامي كله ولا يختلف في مكان منه عن مكان آخر إلا بقدر ما تختلف الأسماء والتواريخ .

ففي الجزائر مثلاً نرى الستار يرتفع عن شعب لا زال يخدره النوم الذي أخنى عليه بضعة قرون : إنه الشخصية الأولى .

ولكن في نفس اللحظة تدخل شخصية ثانية نطلق عليها « فكرة متجسدة » لأنها تتمثل في شيخين وقورين هما الشيخ ابن مهنا والشيخ عبد القادر المجاوي يتقدمان على مسرح التاريخ الجزائري كأول بطلين في الصراع الذي بدأ حينئذ ضد المرابطين والخرافات .

وحيث كان لظهورهما دوي كبير في البلاد . فها هي شخصية ثالثة تدخل على أثرهما : هي الاستعمار .

فالاستعمار يدخل المسرح حتى يعيد إلى جوه صمتا يغار ويحرص على بقائه كي يطيب للنائمين نومهم .

ذلك هو المشهد الأول من الصراع الفكري في الجزائر .

ولكن الاستعمار لا يلجأ في هذا الفصل الافتتاحي لغير وسائل القوة ، إذ هو يدرك أنه يواجه « فكرة متجسدة » يمكنه إقصاؤها عن خشبة المسرح إذا ما أبعد الشيخين اللذين يمثلانها . وكذلك فعل بالضبط .

ولكن سرعان ما تبين له أن الفكرة التي أراد إقصاءها بقيت حية في ميدان المعركة إذ بقيت في صورة جديدة كـ « فكرة مجردة » استقرت في ضمير الشعب.

وهكذا يبدأ الفصل الثاني من الصراع الفكري ، إذ أتيح للاستعمار أن يستنتج من الفصل الأول الاستنتاجات التي سيطبقها فيما بعد في تخطيط سياسته الاديولوجية ، إنه أدرك أن وسائل القوة إذا خابت الى حد ما ـــ كما رأينا في الفصل الأول في مقاومة فكرة متجسدة ـــ فانها ستخيب حتما وبالأحرى في مقاومة فكرة مجردة وأنه يجب إذاً اتباع خطط أكثر دقة .

وهنا يبتدىء الصراع الفكري على حقيقته إذ أن الاستعمار سوف يجتهد في هذا الفصل الجديد في امتصاص القوى الواعية في البلاد المستعمرة بأي طريقة ممنكة حتى لا تتعلق بفكرة مجردة ، ومن البديهي أنه سيحاول اولاً تعبئتها لحساب فكرة متجسدة حيث تصبح أقرب اليه منالاً ، لأنه يمكنه مقاومتها إما بوسائل القوة أو بوسائل الاغراء .

على أن الاستعمار لن يسلك هذا الطريق فقط ، بل إنه سوف يواصل في الوقت نفسه حربه ضد الفكرة المجردة بوسائل ملائمة فيها أكثر مرونة ، ويستعين من أجل ذلك بخريطة نفسية العالم الإسلامي : وهي خريطة تجري عليها التعديلات

اللازمة في كل يوم ، يقوم بها رجال متخصصون مكلفون برصد الأفكار ، إنــه يرسم خططه الحربية ويعطي توجيهاته العملية على ضوء معرفة دقيقة لنفسية البلاد المستعمرة ، معرفة تسوغ له تحديد العمل المناسب لمواجهة الوعي في تلك البلاد حسب مختلف مستوياته وطبقاته ، إنه يستخدم لغة « الفكرة المتجسدة في مستوى الطبقة المثقفة ، فيقدم للمثقفين شعارات سياسية تسد منافذ إدراكهم إزاء الفكرة المجــردة » .

وفي مستوى آخر تراه يفضل لغة الدين لأنها تسد بصورة محكمة منافــذ الوعي إزاء الفكرة ، في هذا المستوى .

غير أننا في مستوى أدنى درجة نراه يستغل جهل الجماهير لينشيء حول الفكرة منطقة فراغ وصمت لعزلها عن المجتمع ، وهكذا حتى يصل إلى أحط مستوى يستخدم سلاح المال إذ يكون لنفسه بهذه الوسيلة صداقات أو كمــا يعبرون بلغة الحرب اتفاقات في البلاد المستعمرة تساعده على توجيــه هجمات محكمة في الوقت المناسب على بعض القطاعات من الجهة الفكرية .

ثم يزيد في إتقان خطته ، فتراه ، يسدل ظلاماً شاملاً على تلك الجبهة كي يعزلها عن ضمير الشعب المستعمر نفسه وعن الضمير العالمي .

وبهذا يصبح وضع الأشياء وكأننا في قاعة غارقة في الضوء بينما يبقى المسرح اته غارقاً في الظلام .

تلك مسرحية مخرجها الاستعمار وهذا المخرج لا يريد ان يشاهد النظارة فعلا ما يجري على خشبة المسرح .

هذا هو الأسلوب الخاص بالصراع الفكري في البلاد المستعمرة نرجو أن نعطي عنها صورة موجزة في هذه الصفحات .

* * *

طالما حلم إله الحرب أن يكون تحت تصرفه السلاح المطلق الـذي يعبر المسافات ، ويتخطى حدود الأوطان ، ولا يرد بأسه بأية وسيلة .

وقد تحقق هذا الحلم القديم باستخدام الطاقة النووية وباعداد الصاروخ العابر للقارات .

ولكن سرعان ما قلب هذا السلاح المطلق قضية الاستراتيجية في العـالم رأساً على عقب : إنهم كانوا يقولون في عصر الحـروب الكلاسيكية ، إن ربع الساعة الأخير هو الذي يقرر مصير الحرب . أما الآن فينبغي أن نقول إن ربع الساعة الأول هو الذي يقرر مصيرها .

من هنا اتخذت الاشياء مغزى جديداً في المنطق الحربي الذي سيطر على قادة السياسة الدولية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى أن مستر دلاس لو كان صريحاً وجهر برأيه حينما يكون يعد إنشاء قاعدة حربية لبلاده في آسيا لقال إنه يريد في الحقيقة إنشاء مانعة صواعق تجذب اليها صواعق الربع ساعة الأول في الحرب الذرية بعيداً عن مواطن السكان ومراكز الإنتاج بامريكا .

ولو صارحنا هكذا قادة السياسة الغربية لفهمنا حينئذ الفهم الصحيح تلك العطايا من الدولارات التي توزعها أمريكا إلى بعض الحكومات الأفريقيـة والأسيوية مقابل إنشاء مانعات صواعق في بلادها : إنها بلاد معدة بتلك العطايا لتصبح الهدف للمدفعية الذرية حينما تندلع الحرب .

هذه هي الفكرة التي يخفيها في نفسه مستر دلاس في سياسة الأحـلاف العسكرية ، من نوع « الحلف الأطلنطي » مطبقاً في آسيا وأفريقيا ، غير أن هذه الأحلاف قد أصبحت غير مجدية لأن الأرض أصبحت صغيرة جداً بالنسبة إلى المتوقع من الخراب والتدمير على نطاق حرب ذرية لا ينفع فيها أي احتياط مـن النوع الذي يفكر فيه مستر دلاس ، وهكذا باتت الحرب العالمية الثالثـة التي عاشت الشعوب في انتظارها منذ عشر سنوات ، من أبعد التوقعات .

وأصبح من شأن السياسة اليوم أن تدرس كيف تكسب السلم ، لا كيف تكسب الحرب •

ولكن هذا لا يعني أن المشكلات قد زالت مع الخصوم بسبب الاتجاه الجديد : فان وجود هذه المشكلات وبالتالي وجود الخصوم فيها منوط بمبررات لا زالت قائمة ، طبقاً لبعض الرواسب النفسية التي حاولت ، في دراسة سابقة ، تبيين طبيعتها حينما تحدثت عن « ذهان القوة والسيطرة » •

وعليه ، فاذا كانت الحرب لن تقع ، نظراً لهذه الاعتبارات ، فان الصراع سيستمر ••• بسلاح آخر ، وفي ساحات قتال جديدة ، إن انتصارات السلام تتقرر في جبهات الصراع الفكري •

ويجب أن لا يبقى عندنا شك في أن الخصوم الذين يتنافسون ، على محور واشنطن ــ موسكو ، للاستيلاء على عناصر القوة ، سيلجؤون الى سلاح الأفكار، حيث أن قنابلهم الذرية أصبحت عاجزة في المستقبل عن حل مشكلاتهم المعلقة •

وهذا الاستنتاج يطابق تماماً ما يتنبأ به أقطاب العلم والفكر مثل برتراند راسل الذي يستنتج في مقال خصصه لهذا الموضوع « بأن كل من يعتقد أن انتصار الشيوعية أو أعوانها أصبح مستحيلاً ، يجب عليه أن يعدل أفكاره : انه يجب عليه أن يعترف بأن وجهة النظر التي بفضلها يجب أن تنتشر بالإقناع لا بالقوة[1] » •

فاذا اقتصرنا ــ في هذه المرحلة الجديدة من تاريخ الإنسانية ــ على اعتبار ما يتعلق بمحور (طانجة ــ جاكرته) فان المشكلة التي تعترضنا ذات وجهين ، لأنه يجب علينا أن نفكر كيف نعطي لأفكارنا أقصى ما يمكن من الفعالية ، ومن ناحية أخرى أن نعرف ما الوسائل التي يستخدمها الاستعمار لينقص ما يمكن من فاعلية أفكارنا ؟•

---

(١) مقتطف من كتاب تيبور مند : « بين الخوف والرجاء » باريس ١٩٥٨ •

وهكذا نصبح ـ في الواقع ـ أمام مشكلتين : الأولى تتضمن كيف ننشيء أفكاراً فعالة في مجتمعنا[1] ؟• والثانية كيف يجب أن نفهم أسلوب الاستعمار في الصراع الفكري ؟• حتى لا يكون له أي سلطان على أفكارنا •

ولكني سأهتم في الصفحات التالية بالمشكلة الثانيــة : ما طرق التخريب التي يمارسها الاستعمار ضد أفكارنا ؟

هذا هو السؤال الذي سأحاول الإجابة عنــه معتمداً على تجربة شخصية أعتبرها مفيدة لسببين :

أولهما : لأنها تتضمن ربع قرن من حياتي •

ثانيهما : لأنها حدثت في بــلاد مستعمرة حيث يمكن للاستعمار استخدام جميع وسائله •

ومن الممكن أن أرد هذه التجربة : كقصة أقصها على القارىء ، أو كمذكرات لمكافح في الجبهة الفكرية •

ولكنني أتجنب الصورة الأولى لأنها ربما توحي للقارىء أنه يقرأ قصــة خيالية ، كما أتجنب الصورة الثانية لأنها تضطرني لذكر الكثير مــن تفاصيل شخصية لا أرى مناسبة لذكرها هنا ، وإنما أود أن يقرأها القارىء بين الأسطر، لأنها تكشف له دقائق الاستعمار وتجلي خططه ، في الصراع الفكري •

إننا ذكرنا أن الاستعمار مخرج لا يرى أن يقع الضوء على المسرح حينما يدور فيه فصل من فصول الصراع الفكري ، وإذن سوف يكون من المفيد إن وجه بعض الضوء على من يقوم بدور فيه ، حتى لو كان ضــوء شمعة جيب ، محاولا بذلك تجلية مهمة الصراع الفكري في وقت مناسب ، أعني في الوقت الذي يجد العالم فيه نفسه مضطرا لخوض معركة الأفكار •

---

(١) انني أخصص دراسة لهذا الموضوع تحت عنوان « مشكلة الافكار في المجتمع الاسلامي » •

وربما أتاحت لنا هذه المحاولة تصوير الطابع الخاص الذي تتخذه هذه المعركة في البلاد المستعمرة ، حيث تكون فيها ــ كما قلنا ــ منعزلة عن الشعور في الداخل وفي الخارج معاً .

ولسنا نشير ، بالشعور في الخارج ، إلى الصحفي أو الكاتب التقدمي الأجنبي فقط ، وقد بينا فيما سبق الدوافع التي تعزل هؤلاء نفسياً عن الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، ولكننا نشير الى المثقف العربي نفسه ، الذي كافح ضد الاستعمار ضمن « جبهة وطنية » إنه رغم ذلك ، أو على الاصح بسبب ذلك، لم يكتسب التجربة الشخصية التي تتيحها الظروف لمن وجد نفسه في وضع الفدائي ، أي منفرداً في جبهة الصراع الفكري في بلاده .

إنه من الضروري لمن يريد ان يتعرف على وسائل الاستعمار في هذا الميدان أن يكون له اتصال مباشر به ، بينما لا يكون هذا الاتصال ممكنا لمن يكافح ضمن « جبهة وطنية » تموله وتحميه ، وتحيطه بالاحترام ، ثم تمنحه غالباً مركزاً يغبط عليه .

أما الصحافي أو الكاتب التقدمي الذي يكافح في بلاده ضد الاستعمار بالكتابة أم بالقول فان قوانين بلاده ذاتها تحميه من الأذى وتحمي أسرته ، ولربما وضعت أفكاره أحياناً موضع التقديس كما نرى أولئك الأحرار من الشعب الانجليزي الذين رافقوا المهاتما غاندي في طريق « الساتيا جراحة » الذي قاد الهند إلى الاستقلال .

وهكذا يصبح للصراع الفكري ظروفه الخاصة بالنسبة لمن يجد نفسه متورطا فيه ، في بلاد مستعمرة كالجزائر ، أي في بلاد تجهل هي ذاتها ، أن معركة أفكار تدور في أرجائها ، فيتأتى هكذا للاستعمار أن يعزل من دخل المعركة حتى ليجد نفسه في وضع الفدائي الذي يخوض المعركة على حسابه الخاص ، دون أي قاعدة تموله وتسلح كفاحه .

إن ظروف البلاد المستعمرة لم تترك لمن يدخل الصراع الفكري أن يختار ، ولو قدرنا أنه قد اختار هو نفسه ، هذا النوع من الكفاح . لكان في تقديرنا نوع من الاعتساف حيث نكون قد اتهمناه ، بمقدار من البلادة لا يتصوره العقل أو بمقدار من البطولة لا يدعيه لنفسه .

فالأشياء تسير بصورة آلية ، وطبقاً لقدر مقدور تفرضه طبيعة المعركة في البلاد المستعمرة ، ومقارنات أحوال ناتجة عن أوضاعها وظروفها الخاصة ، فهذه الأشياء هي التي تقرر نوع المعركة وتضطر من أراد أن يخوضها أن يكون في وضع الفدائي المنعزل .

ولكي تكون هذه الأشياء أكثر وضوحاً في أذهاننا ، فلنتخذ من الواقع مثلاً يؤيد ايضاحها : إن ثورة يوليو ١٩٥٢ في القاهرة كانت من أهم الحوادث بالنسبة للصراع الفكري ؛ حيث أنها كنست عهد فاروق وآذنت بعهد جديد وكان لهذا الحدث تأثير شرارة كهربائية انطلقت في وعي البلاد العربية والعالم الإسلامي .

وبذلك دخلت التاريخ فكرة معينة تمثل شخصية جديدة تدخل مسرح الصراع الفكري .

ولكن يجب أن نتصور بجانب ذلك ، مدى اهتمام المراصد المختصة ازاء ظهور هذه الفكرة ، انهم سجلوها في الحال وأبلغوا عنها فوراً .

وعلى أثر ذلك سنرى شخصية ثانية تدخل المسرح : الاستعمار .

لقد بدأت المعركة فعلاً تزداد حرارة ، بمقتضى تفاعل الرأي العام في البلاد المستعمَرة مع حوادث القاهرة ولقد أبدى الضمير الجزائري مثلاً اهتماماً متزايداً لقضية الاصلاح الزراعي والملكية ، حينما سجلتها الثورة المصرية بين أهدافها الأساسية ؛ وكان الشعب الجزائري متحمساً لهذه القضية ومتحمساً لها بوجه خاص لأنها تمثل قضيته ؛ حيث إن الاستعمار قد استهدف في تخطيط سياسته الجزائرية ، الاستيلاء على التراب وتحطيم طبقة الفلاحين .

هنا شعر الاستعمار بأنه أمام حالة خطيرة إذ أنه أمام « فكرة جديدة » وكان من الطبيعي أن يستعد لحملة عنيفة ضد تلك الفكرة •

هذه صورة موجزة من الظروف التي تكوّن فجأة فصلا من فصول الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة •

ومما يجب ملاحظته في هذه الاثناء ، أن الصحافة « الوطنية » أي صحافة الأحزاب التي تحمل في البلاد طابع الكفاح ضد الاستعمار ، كانت تتخذ إزاء هذه الحوادث موقفاً شبه حيادي إذ لا تنتشر عنها غير الانباء التي توزعها شركات الأنباء العالمية التي نعلم مالها من روابط وثيقة بالاستعمار ، حتى كان من الميسور على القيادة الاستعمارية أن تعد عدتها للهجوم في ظروف جد مواتية •

وهكذا بدأ الاستعمار فعلا هجومه ضد فكرة الإصلاح الزراعي وتعديل الملكية ، ولا عجب في هذا وإنما العجب كل العجب أن يصدر هجومه الأول على أعمدة صحيفة تحمل طابع الوطنية ، والجهاد ضد الاستعمار •

فتعجب إن شئت ، أيها القارىء الكريم ، ولكنه واقع الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة ••

ولنتصور الآن : ماذا يكون موقفك في مثل هذه الظروف ، وليس أمامك إلا السكوت في صالح الاستعمار او الكلام في صالح قضية تهم الشعب !

فاذا قدرنا أنك اخترت الحل الثاني ، فيبقى علينا أن نستنتج من هذا الفرض نتائجه ، إذ لا يمكنك أن تدخل المعركة ، في مثل هذه الظروف ، إلا منفصلاً عن « الجبهة الوطنية » التي تمثل في بلادك « الجهاد » ضد الاستعمار ، أي أن الوضع هو الذي يفرض عليك أن لا تدخل المعركة الا كـ « فدائي » لا حيلة له الا اتباع ما يمليه ضميره عليه ، ولا وسيلة له سوى مابين يديه ، دون ما تمويل أو زاد ، دون سلاح يأتيه من خلفه في جبهة الصراع •

تلك هي بالضبط ظروف الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة وليس لأحد

أن يختار سوى أن يستمر فيه على هذه الشروط ، او أن يخرج من الميدان .

وإنك تعلم ، لا شك ، أن الاستعمار بالمرصاد : فهو يريد طبعاً أن يضطر المكافح الى الحل الثاني ، أي أن يضطره الى الخروج من الميدان .

ولسوف يستعين بطبيعة الحال للوصول الى غايته تلك بجميع ما في البلاد المستعمَرة من ضعف في حياتها الفكرية ومن رواسبَ سلبية في حياتها السياسية .

وهذا الجانب من القضية لا بد من توضيحه بسبب ما له من الأهمية في سير الصراع الفكري ، فلو أننا قمنا بدراسة مقارنة للأشكال السياسية في بلاد مختلفة ، أو في بلد واحد في مراحل مختلفة من تطوره ، فاننا سوف نجد على العموم ، صنفين من السياسة وأن لكل صنف واقعه الخاص .

فأما الصنف الأول فهو السياسة التي تتمثل في « أفكار مجردة » وأما الصنف الثاني فهو السياسة التي تتمثل في « أفكار مجسدة » .

وقد تكون الأولى نوعاً مطوراً من الثانية ، كما يمكن أن تكون الأخيرة صورة منحطة من الأولى . ولكل صنف منهما اعتباراته الخاصة به ، طبقاً لجذوره وفروعه النفسية .

فالسياسة التي تتطور تبعا لـ « أفكار مجردة » تعانق بحكم الضرورة الضمير الشعبي ، ومن ناحية أخرى فانها تلتزم المبادىء والمقاييس والقواعد التي تتحكم في سيرها ، فانها بذلك تحمل في طبيعتها مبدأ التعديل الذاتي الذي يفرض عليها رقابة من نفسها معدلا بذلك حركتها واتجاهها عند الحاجة .

وكل حركة من حركاتها تتطلب كأي عملية حسابية ، تعقيباً على تنيجتها ، وتصحيحاً تابعاً لها ، فإن السياسة المقعدة تراجع دائما نتائجها .

وهذه المراجعة تحميها من تدخل أي عامل أجنبي يحاول تغيير مجراها ومرساها ، لأنها تكون جهازاً معدلاً يطلق إشارة الخطر كلما حدث في الطريق أي حدث من شأنه أن يغير في الحركة او في الاتجاه .

ولقد لخص بعض الساسة هذه الاعتبارات كلها ، أو أنها تلخصت تلقائياً ، في ذهنه حينما صرح منذ عامين ، قائلاً « إن سياستنا لا تخطىء لأنها علم » •

فبقدر ما نتصور أن العلم لا يخطىء ، فإن هذا السياسي يكون محقاً في وجهة نظره •

أما في البلاد التي لم تبلغ درجة معينة من التطور أو التي سببت لها بعض الظروف وعواصف التاريخ نكسة في التطور وحركة تقهقر شامل كما حدث لألمانيا في عهد هتلر ، فان الفكرة المجردة تحل في شخص لتنشىء صورة سياسية خاصة ، وهذه بحكم شذوذها عن مقاييس العقل ، تتشبث بفرد تتجسد في ذاته فتتطور وتنمو وتنتظم طبقاً لمصالحه الشخصية بحيث تصبح هذه المصالح تلقائياً ، هي المبررات والدوافع والمقاييس لسياسة عاطفية •

وقد يحدث أن يتنحى أو ينحى ، الفرد الذي يجسد هذه السياسة فيحل مكانه كائن مركب ، أو بعبارة أدق « مركب أفراد » يجمع بينهم اتصال عضوي، مثل ما يسمى في الطب « التوائم السيامية[1] » •

وقد يحدث أن يكون هذا الاتصال بواسطة جهاز هضم مشترك • فيصبح الكائن المركب بذلك قائماً على تضامن هضمي ، فكل ما يمر بحنجرة فرد من الأفراد المركبين يدخل في عملية هضم مشتركة •

وتصبح « القضية » كما يقال في العرف السياسي قضية هضم ، ولا بأس أن يكون في الرؤوس المتصلة بالجهاز الهضمي أفكار مختلفة شريطة أن لا يعطل ذلك الاختلاف عملية الهضم ، وإلا تخلص مركب الأفراد من الرأس الذي يحمل فكرة مشوشة ، وفصله عن جهازه الهضمي •

إنه تركيب بالغ الدقة ، والاستعمار يتقن تركيبه بدقة صانع الساعات العبقري ، فهو يكوّن لها جهازاً صالحاً لتحويل أي فكرة تظهر في البلاد المستعمرة

---

(١) يعبرون بهذه العبارة عن التوائم التي تولد ملتصقة بعضو من أعضائها •

إلى فكرة « متجسدة » قريبة المنال ويكون له بالتالي خير وسيلة لمقاومة أي محاولة تظهر في البلاد المستعمَرة لتعديل وتصحيح نظمها السياسية .

إنه جهاز يعمل طبقاً لآلية نفسية غير معقدة ، تدفعه إلى الحركة دوافع عاطفية وتوجهه العوامل التي توجهه لسياسة عاطفية وهي عوامل تمثلها في مستوى معين، مصالح خاصة .

والاستعمار يعلم كل شيء عن آلية تلك المصالح التي تعبر في النهاية عن ردود أفعال لجهاز هضم .

ولا يغيب عن نظرنا أن السياسة لا تحيد ، ولا يمكن لأي محاولة أن تحيدها عن الطريق ، طالما بقيت دوافعها في ضمير يعي ، وفي عقل يدرك ، وفي قلب يشعر ، أو بعبارة أخرى طالما كانت دوافعها متصلة بالأفكار .

أما إذا كانت دوافعها ناشئة عن آلية جهاز هضم ، فان الاستعمار يستطيع أن يتصرف في رغبات ذلك الجهاز ، أي في شهوات « مركب أفراد » لتبقى البلاد المستعمَرة تحت تصرفه سياسياً واقتصادياً .

والأمثال التي تدل على هذه الحالات كثيرة في البلاد الافريقية ـ الآسيوية ، إننا نرى ـ مثلاً ـ مصر تواصل تنميتها الاقتصادية[1] ، رغم الضغط الماحق المسلط على اقتصادها من الخارج ، منذ عامين ، أي منذ تطبيق مشروع ايزنهاور المشهور ، بينما نرى ، في بلاد افريقية اسيوية أخرى ، النشاط الاقتصادي معطلا رغم حقنه بالدولارات أكثر من مرة ، لأن سياسة تلك البلاد لا تخضع لسلطة ضمير وعقل وقلب أي لسلطة أفكار ولكنها تخضع لشهوات أمعاء .

فالأمعاء ، التي ركب عليها الاستعمار الرؤوس الحاكمة تعطل النشاط الطبيعي في الوطن .

(١) حرر هذا الفصل قبل تأسيس الجمهورية العربية المتحدة .

وحينما نتكلم عن هذا الكائن الغريب ، فاننا لا نتحدث عن وحش من عصور ما قبل التاريخ ، بل عن حيوان معاصر لنا : انه كائن أميبي تتصرف دوافعه الهضمية في سياسات بدائية .

وكل ما يقتضيه الاتقان من دقة في تركيب هذا الجهاز الغريب ، هو أن تؤدي شهواته وظيفة سياسية في البلاد المستعمَرة ، وقد بينا أن الاستعمار يتقن جداً هذا التركيب ، وأساس نجاحه في هذه المهمة هو ماتتضمنه نفسية الشعوب بصفة عامة ، من ميل طبيعي نحو « السهولة » والأشياء المسهلة .

فحينما تخطط السياسة طبقاً لمبدأ السهولة ، فانها سوف تجتذب إلى تيارها كثيراً من الناس ذوي النوايا الطيبة ، الذين يقدرون الأشياء بناء على سهولات الحاضر ، لا على صعوبات المستقبل .

وإذا ما قدرنا أنه يضاف شيء من الإغراء إلى هذه الجاذبية ، الطبيعية ، فاننا سوف نتصور حتمية الانزلاق إلى وحل السهولات المغرية . وهذا الشيء موجود بالفعل ، إذ أن طريق السهولة تؤدي حتما الى سياسة هضمية تلبي وتغذي الشهوات . فهو موجود من بين الشعارات الرائجة في الأسواق السياسية ، وإن كلمات مثل الاستعمار والامبريالية ، والوطنية ، تليق جداً لتشحيم المنحدر حتى يكون الانزلاق عليه نحو السهولة ميسوراً جداً .

وقد رأينا في مؤتمر باندونج ، كيف تستخدم كلمات « شيوعية » « واستعمار » قد استخدمها فعلا بعض الدجالين في خطة تشحيم محكمة ، كي يخرجوا المؤتمر من طريق البناء وينزلقوا به للهتاف والصخب .

وهذا كله في سجية الانسان ، في ميوله الطبيعية . وقد تعد برامج الثقافة في البلاد المتقدمة من أجل مقاومة هذه الأسباب النفسية حتى لا ينتج عنها انحراف ما في حياة المجتمع .

غير أن الاستعمار يستغل هذه الاستعدادات ويقرن أسبابها النفسية بخطط

تربوية مناسبة ، في البلاد المستعمَرة لأنها ليس لديها في ثقافتها الموروثة عن عهد انحطاط ، ما يقاوم أسباب الانحراف في نفسية شعوبها ، فيصل إلى أن يضع بتلك الاستعدادات سياسة « عاطفية ــ شهوانية » تتفق مع مصالحه • فهو يضعها حينما يربط عواطف الشعب الطيبة بشهوات « مركب أفراد » معين •

إنه يعلم أن كل شعب مستعمَر يحقد على الاستعمار ، فتراه اذن يستخدم جاذبية اسمه نفسه ليربط براءة الشعب المستعمَر وشهوات « مركب الأفراد » الذي يتزعم حياته السياسة •

ان كلمة « استعمار » هي أخطر سلاح يستخدمه الاستعمار ، وأحكم فخ ينصبه للجماهير ، وما من خائن يدسه الاستعمار في الجبهة التي تكافح فيها الشعوب المستعمَرة ، إلا وكلمة « استعمار » هي التي تفتح له أبوابا مغلقة في عواطف الجماهير •

وبهذا ، وبغيره من الشعارات المثيرة ، يتمكن الاستعمار من وضع الطابع البدائي على سياسة البلاد المستعمرة ، ليقرر لنفسه بذلك انتصارات الحاضر والمستقبل فهو يعلم أنه من الميسور دائماً أن يخدع فرداً أو مركب أفراد ، ولكنه من العسير عليه أن يخدع فكرة أو يغريها •

ومن هنا ندرك ما سيبذل الاستعمار من جهد لعزل الأفكار عن المجال السياسي حتى أن عمليات الرقابة والتصحيح والنقد الذاتي ، التي من شأنها أن تكشف نواياه وتعطل مشروعاته تصبح غير ممكنة في البلاد المستعمَرة •

إن الاستعمار شيطان : ولكنه لو جهر باعجابه « بمركب الأفراد » وشكره على الخدمات التي يقدمها له ، عن شعور أو عن غير شعور ، لكان دون شك ، شيطاناً بليداً أبلد من وزير الخارجية الأمريكي لو أنه شكر عن طريق الاذاعة أو الصحافة ، حكومة افريقية آسيوية لانها سمحت له بانشاء قاعدة حربية في بلادها لتجذب إليها الصواعق الذرية بعيداً عن أميريكا إذا ما نشبت حرب عالمية ثالثة •

إن الشيطان ـ أو بعبارة أخرى الاستعمار ـ يكون أبلد من هذا الوزير الفضولي ، لو أنه شكر « مركب الافراد » على أنه أمعاء تهضم غذاءها بكل هدوء فلا تكشف نواياه ولا مشاريعه .

إن الاستعمار يحسب حسابا لكل أعماله ، وأقواله ، حتى لا ينفك الاتصال بين مصالح مركب الأفراد ، وبين انفعالات الشعب ، أي بين شهوات البطون المؤثرة وبين الاوضاع العاطفية الواقعة تحت تأثيرها .

والمحافظة على هذا الاتصال هو الشرط الأساسي في خطة الاستعمار الاستراتيجية ، التي تقتضي في حالة التطبيق :

اولاً : أن يضرب الاستعمار كل قوة مناهضة له ، تحت أي راية تجمعت .

ثانياً : أن يحول ، في كل الظروف بينها وبين أن تتجمع تحت راية أكثر فعالية .

وهذان الشرطان يحددان استراتيجية الاستعمار في الصراع الفكري في البلاد المستعمرة : إنه يحول بين الفكر والعمل السياسي حتى يبقى الأول غير مثمر والثاني أعمى .

وهو من أجل هذا ، يطبق طريقة التجميد ، التي تطبق في جبهة القتال لتجميد قوات العدو عند نقطة معينة .

فالاستعمار يتبع في ذلك طريقة تطبق في بعض الالعاب الاسبانية : إنهم يلوحون بقطعة قماش أحمر أمام ثور هائج في حلبة الصراع، فيزداد هيجانه بذلك. فبدلا من أن يهجم على المصارع يستمر في الهجوم على المنديل الأحمر الذي يلوح به حتى تنهك قواه ...

فالاستعمار يلوح في مناسبات معينة ، بشيء يستفز به الشعب المستعمَر حتى يثير غضبه ، ويغرقه في حالة شبيهة بالحالة التنويمية حيث يفقد شعوره ويصبح عاجزاً عن إدراك موقفه ، وعن الحكم عليه حكماً صحيحاً ، فيوجه ضرباته وإمكانياته توجيها أعمى ، ويسرف من قواه دون أن يصيب بضربة صادقة المصارع

الذي يلوح بالمنديل الأحمر ••• الاستعمار بطل الألعاب الاسبانية ••• في المجال السياسي •

ويمضي الشعب الباسل في هذا الوضع الدرامي ، كأنما تضحياته ذاتها من النفس والنفيس جمدته وقضت عليه بالبقاء فيما هو فيه •

وهكذا نصل الى استنتاج جد غريب في السيكولوجية السياسية ، وهو أن السياسة العاطفية لا تجد مبرراتها في كسبها ولكن في خسارتها : فكلما تقطعت أنفاس الثور ، ونزف دمه في حلبة الصراع ، يزداد هجومه على المنديل الأحمر •••

والاستعمار يجيد تشغيل هذا الجهاز ، حيث إنه هو الذي ابتكره وركبه ، أو ركب فيه بعض محركاته فهو يعلم أن هذه المحركات ليست من مواهب ضمير ، ولكن من خصائص أمعاء •••

فهو يستمر ، إذاً ، في التلويح بالمنديل الاحمر ، حتى لا تكون للشعب المستعمر فرصة يتدارك فيها ، ويفكر في أمره ، وأن ينظر إلى مشكلاته بمنطق الفعالية ، أي أن يضعها طبقاً للأسس السياسية العلمية •

هكذا يجمد الاستعمار القوات التي تناضل ضده ، يجمدها هكذا عند نقطة معينة وتحت راية معينة •

فلو أتيح لإنسان أن يتتبع ، بإمعان أحوال الصراع الفكري في بلد مستعمر معين، ورزق موهبة النقد السليم للأشياء، والإدراك الصحيح لمجرى التاريخ،أقول لو أنه تتبع هذه الأحوال منذ الحين الذي دخلت فيه القوى المناهضة للاستعمار على المسرح ، فانه سوف يتنبه لشيء هو أن الاستعمار يسلط الأضواء الكاشفة على ركن معين من المسرح ، أي بالضبط على النقطة التي يريد أن يجمد عندها القوى المناهضة له •

ثم يرى أن ركناً آخر من المسرح بقي يغمره الظلام • وإذا هو حدّق البصر لاحظ أن الأضواء الكاشفة تتحول عن هذا الركن عن قصد ، كأن إرادة خفية

تحرص على أن يبقى مغموراً بالظلام : ففي هذا الركن على وجه التحديد ، يريد الاستعمار عزل « الفكرة » ومعها يعزل بطبيعة الحال ، المكافح الذي دخل المعركة تحت رايتها واضطرته الظروف كما بينا أن يدخلها بمفرده ، أي كفدائي يجد نفسه في نقطة تقاطع النيران التي تصوب عليه من يمين وشمال ، من خلفه وبين يديه .

ثم لو أنه تأمل هذه الملاحظات لوجد نفسه أمام أمر يدعو إلى الدهشة : فهناك اتفاق ضمني بين السياسة الشهوية المتجسدة في « القناة الهاضمة » وبين الاستعمار . ومهما تكن حقيقة هذا الاتفاق فليس من الضروري ، أن تكون الرؤوس المركبة على « القناة الهاضمة » جميعها على بينة منه فان هذه الغفلة كما سبق أن بينا من طبيعة السياسة العاطفية التي تتجه تلقائياً نحو السهولة ، أو بتعبير آخر إنها من طبيعة القابلية للاستعمار .

ومع ذلك فان هذا الاتفاق قد يكون ، مقصوداً بالذات فاننا لا نتصور على سبيل المثال أن مركب الأفراد الذي يحكم في كراتشي يجهل علاقته بالاستعمار ودوره في سياسة الأحلاف الاستعمارية بينما هو أدق جهاز ركبه الاستعمار الذي أتقن جداً هذا التركيب ونجح حتى في تركيب رأس علي‌خان على «القناة الهاضمة» التي تكوّن جهاز الحكم في تلك البلاد المظلومة .

ومع هذا ، أو رغم هذه الدقة وهذا الإتقان في صنع الآلات الهاضمة التي يحاول الاستعمار أن يجعل منها أجهزة الحكم في البلاد المستعمرة قد يجد نفسه أمام أمر واقع حينما تحدث إشارة خطر مفاجئة ، تفاجئه رغم احتياطاته وتوقعاته كلها ، وعلى الرغم من شركائه الذين يشاركونه الأمر بحكم الإغراء أو بحكم البلادة .

إن إشارة الخطر حينما تنطلق توشك أن توقظ شعباً مرهق الأعصاب جسيم الآلام مستولياً عليه الغضب ، كأنما المنديل الأحمر جعله في حالة شبه تنويمية .

فاشارة الخطر التي انطلقت فجأة ، قد تذكره بحقه ، بل بواجبه في فرض

رقابته على السياسة المتبعة في بلاده وفي أن يطلب كشف الحسابات ومراجعتها وهذا هو الخطر الأكبر على الاستعمار حينما يرى الشعب المستعمر يتولى بنفسه الحياة السياسية ، كما حدث ذلك أو كاد يحدث حينما تأسس في الجزائر سنة ١٩٣٦ ذلك المؤتمر الذي أقام قادة الأوساط الاستعمارية وأقعدها .

لقد كانت لحظة خطر شديد بالنسبة للاستعمار ، حيث شعر أن الوصل الذي وضعه وأحكم وضعه بين شهوات بدائية تحرك مركب أفراد وبين اندفاعات عاطفية تهز جماهير ، بين عملية هضم وبين سياسة تستهدف السهولة شعر الاستعمار فجأة أن ذلك الوصل قد أصبح مهدداً حينما انطلقت إشارة الخطر .

فماذا سيفعل الاستعمار في مثل هذه اللحظة ؟

ينبغي لنا أن نلاحظ أولاً ، أن الإشارة التي أعلنت بالخطر ، قد تكون بلغت بل إنها بلغت فعلا ، إلى علمه عن طريق مراصده قبل أن تصل إلى شعور الشعب المستعمر لأنه لا يملك الجهاز الذي من وظيفته (مثل طبقة مثقفة واعية) أن يبلغ له هذا النبأ .

وبهذه الملاحظة ذاتها ندخل في الموضوع من بابه : إن إشارة الخطر إذ تعلن في الواقع عن كتاب صدر أو عن مقالة نشرت أو عن حديث انتشر إنما تدل على وقوع الحدث الأول من فصل من فصول الصراع الفكري .

الصراع الفكري ؟...

فهل لهذه الكلمة معنى في البلاد المستعمرة ، وهذه البلاد تجهل على العموم قيمة الفكرة في مصير المجتمعات كما تجهل دقة الخطط التي ترسم من أجل التحكم في مصير الشعوب المتخلفة عن طريق أفكارها .

إنه ينبغي أن نفهم الفرق الشاسع بين موقفين : موقف من يريد من الماء شيئاً تتطلبه تغذية جسمه حينما يعطش ، وحاجة ترابه حينما يزرع ، وموقف من يريد زيادة على ذلك أن يعرف ماهو الماء كـ « ماء » ومن أي عناصر يتركب وتحت أي

شروط يتم تركيبه • فالفرق بيّن : بين موقف من يعلم « تلقائياً » كيف يتصرف الشيء في حاجاته مثل الماء وبين موقف من يحاول أن يتصرف في الشيء ليس طبقاً لحاجاته فحسب بل أبعد من حاجاته البسيطة ايضا •

كذلك فان البلاد المستعمرة لا تعرف على العموم ماهو الصراع الفكري وإنما تسجل تلقائياً نتائجه السلبية في حياتها فحينما ترسل إلى الخارج بعثة من الطلاب للدراسة العليا ، فقد قامت تلقائياً بعمل يتصل بالصراع الفكري ، ولكنها لا تعلم بالضبط مقتضيات هذا الصراع وأسلوبه ووسائله وأهدافه •

وعلى ذلك فان عملها ينتهي بمجرد ما تخرج البعثة مـن أرضها إذ تصبح شؤونها مجرد عملية صرف يقوم بها البنك الذي يؤدي لكل طالب مبلغه الشهري•

إنها لا تعلم أن تلك البعثة التي سلمت شؤونها للبنك ، قد دخلت دون أن تشعر في حلبة الصراع الفكري إذ تقبلتها رعاية الاستعمار وأحاطتها برقابة دقيقة وأعدت لكل فرد من أفرادها ملفاً خاصاً لا يغادر كبيرة ولا صغيرة من تصرفاته إلا أحصاها حتى يكون لدى الاستعمار عن تلك البعثة معلومات أكثر مما هي عند المصلحة أو الوزارة التي أرسلتها •

فهذا ، بالنسبة للبعثة هو الفصل الأول : فصل التعرف ثم يبتدىء الفصل الثاني : فصل التوجيه •

وهنا يبذل الاستعمار كل مواهبه الشيطانية حتى لا تعود البعثـة بطائل لبلادها إذ يتصرف من أجل ذلك طبقاً للمعلومات التي سجلتها الملفات : فهو يغذي الهوى والشهوات دون أن يصرف قطميراً ، فإن التكاليف تدفعها ميزانية البـلاد المستعمرة ذاتها والبنك المختص يؤديها والحمد لله في كل شهر •••

ويستمر هذا التوجيه السلبي خفياً كسر من أسرار ملفات الاستعمار الخاصة بالصراع الفكري ، السر الذي لا نعلم عنه شيئاً نحن أبناء المستعمرات أو شـبه المستعمرات الا عندما يأتينا فجأة صداه في صحيفة يومية في شكل فضيحة أو

جريمة يرتكبها أحد أفراد البعثة ، دون أن نشعر أنه في الواقع صدى المعركة ونبؤها في صورة جزئية عابرة ، لاننا تعودنا بمقتضى « العقل الذري » الذي يجزىء الأشياء أن لا نرى أن الجزئيات التي تقع تحت حسنا تنبع من كليات لم تصل بعد الى عقولنا ، كما لا نرى من ناحية أخرى وبسبب تخلفنا الاجتماعي ؛ أن العالم الذي نواجهه ونعيش فيه مخطط أي أنه عالم لا تأتي فيه الأشياء عفواً وإنما كنتائج لخطط محكمة •

ثم بعد سنوات من ذهاب تلك البعثة التي أرسلناها للخارج تأتي النتيجة النهائية : أن بعض أفرادها يعودون الى البلاد بخفي حنين لأن التوجيهات الاستعمارية المحكمة حطمتها في الطريق ، والبعض الآخر لا يريد العودة لأن الاستعمار حينما لاحظ امتيازهم في العلوم مثلاً لم ير من مصلحته أن يتركهم يعودون فاتخذ كل الإجراءات اللازمة من أجل ذلك بكل ما لديه من وسائل الإغـراء •

غير أن هذه الأشياء لا تصل إلينا إلا في صورة مجملة كمجرد أنباء تتلقاها من الصحافة اليومية دون أن تتصور أسبابها الكامنة ودون أن نشعر أن هذه الفضائح اليومية تنبع من فضيحة كبرى هي تصورنا الصبياني للعالم الذي نعيش فيه •

وبعبارة أخرى : إن البلاد المستعمرة تعيش الصراع الفكري وتسجل نتائجه السلبية في حياتها أو ميزانيتها وفي أخلاقها دون أن تعلن عن حقيقته شيئاً ، وتترك المعركة في وجوه نشاطها نتائجها المتنوعة ، دون أن تشعر تلك البلاد أن معركة مرت بأرجائها •

فالأمر ــ كما بيّنا في غير هذا المكان[1] ــ أن الأشياء تمر علينا دون أن تصل لشعورنا لأننا نمر على سطح الأشياء دون أن نصل إلى مكنونها •

---

(١) كتاب « مشكلة الثقافة » •

وهل يرجى من الاستعمار أن يسلّط الأضواء على المسرح في الوقت الذي تدخل فيه الفكرة حلبة الصراع وبالضبط على الركن الذي تبتدىء فيه المعركة ؟

لا شك أنه سوف يكون شيطاناً بليداً لو فعل ذلك ، بل على العكس سوف يحاول أن يجعل الظلام يتزايد في ذلك الركن حينما تدخل الفكرة حلبة الصراع ، بمعنى أنه يحاول جهده عزل المعركة عن الطاقات المكافحة في البلاد وعن وعي البلاد ذاتها .

وإذن فحينما تنطلق إشارة الخطر في كتاب صدر أو مقالة نشرت ، فان المكافح الذي أطلقها يجد نفسه منعزلاً وفي وضع الفدائي رغم إرادته ، وهكذا يبدأ كفاحاً فردياً بمعنى الكلمة لا يجد فيه الفدائي قوة تسانده ولا قاعدة تسده بالغذاء والسلاح : فالظروف التي جعلت منه « فدائياً » لم تترك له وسيلة ولا حيلة ...

وسوف يستوحي الاستعمار من تلك الظروف ذاتها خطته إزاء ذلك الفدائي بما يقتضيه منطق الوحوش الضارية فيوجه ضرباته القاسية لكل أفراد أسرته ، أطفالاً ونساء لأن الضربات التي قد يتلقاها طفل أو امرأة أو شيخ عجوز تؤثر في أعصابه وفي معنوياته أكثر من الضربات التي يتلقاها في شخصه .

هذا هو أسلوب الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة في صورته الإنسانية، وإن ظروف الحرب القاسية لهي التي تملي هذا الأسلوب وقد لا يجد القارىء في هذه الصورة إلا مجرد تلميحات إلى الجانب المتعلّق بحياة شخص وبحياة أسرته، ولكن عليه أن يقرأ هذه التفاصيل بين السطور إذا كان يريد أن يكوّن فكرة صحيحة عن حقيقة الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة حيث يجعل منه الاستعمار صراعاً خفياً أصم ودون صدى ، ودون شهرة : صراعا يحيطه الظلام والإبهام والغموض ، صراعا يصب العذاب .. حتى على العجوز .. حتى على المرأة .. حتى على الطفل ..

هذا هو الطابع العام للصراع الفكري في البلاد المستعمَرة .

الفصل الثاني

في حلبة الصراع

إن الاعتبارات التي تقدمت في الفصل السابق • تبين كيف أن الغموض يكوّن العنصر الأساسي الذي يميز الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، وكيف أن الاستعمار يبذل جهوده في إحاطة هذا الصراع بالغموض ، سواء بالنسبة لابن البلد الذي يكافح الاستعمار في جبهة وطنية ، تساند كفاحه ، وإن كانت تفرض عليه ، وفي الوقت نفسه رقابة لا تتفق دائماً مع ضرورات الكفاح ، كما سبق أن بينا ، سواء بالنسبة للمسلم الذي دخل المعركة ضد الاستعمار في بلد مستقل أو شبه مستقل ، وبالتالي ، بالنسبة للكاتب التقدمي الذي يساهم أيضاً ، في الخارج ، في هذا الصراع في صورته السياسية كما ذكرنا آنفاً •

ولا غرابة في أن هذا الكاتب التقدمي وذلك المسلم المكافح في بلد مستقل أو شبه مستقل يجهلان هذه الأشياء فإن ابن البلد المستعمَر نفسه يجهلها •

ومن هنا كان علينا أن نخص التجربة الشخصية في هذا الميدان بقيمة أكبر مما يمكن أن تستحقه في ميدان آخر لأنها سوف تنبه الشباب المسلم لأخطار الطريق ومفاجآتها في اللحظات التي سيدخل فيها لحلبة الصراع الفكري ، الذي سيقرر مصير العالم أجمع ، ومصير العالم الإسلامي العربي بوجه خاص •

إن الغموض الذي يريد الاستعمار أن يحيط به الصراع الفكري لا تبدده الاعتبارات العامة ، إن لم تستمد برهاناً من تفاصيل واقعية ، أعني من صميم تجربة

وقعت فعلا في ظروف معينة فهذه التجربة تقضي حينما نريد أن نصور خطة الاستعمار في هذا السبيل ، أن نلاحظ مبدأين : مبدأ الغموض ومبدأ الفعالية •

فالمبدأ الأول يقضي بأن لا يكشف الاستعمار النقاب عن وجهه في المعركة إلا إذا لم تترك له الظروف حيلة ، فهو دائماً أو غالباً يستخدم قناع القابلية للاستعمار •

والمبدأ الثاني ناتج عن الأول ، في حيز التطبيق ، إذ أن هدف الاستعمار لا يتعلق ، في الأساس بذات شخص معين ، ولكن بأفكار معينة يريد تحطيمها أو كفّها ، حتى لا تؤدي مفعولها في توجيه الطاقات الاجتماعية في البلاد المستعمَرة•

وهذا يعني أن الاستعمار لا يبغي حياة المكافح في ذاتها ، فهو لا يلجأ الى التنكيل منها إلا إذا اضطرته الظروف الى ذلك بل لعلنا نراه في بعض الحالات يشعر بالخيبة والخسارة اذا مات المكافح لأن موته أحياناً حياة لأفكاره ، ولقد شعر بهذا الشعور ، دون أي شك عندما قضى نحبه ، ذلك المكافح (ابن باديس) الذي قاد الفكرة الإصلاحية في الجزائر طيلة سنين عديدة • ذلك أن موته قد حرر نهائياً الفكرة الإصلاحية ، التي كانت تشبه « فكرة متجسدة » فأصبحت بموت صاحبها « فكرة مجردة » لا يجد الاستعمار إليها سبيلاً •

ومهما يكن من أمر ، فإن المبدأ الثاني يقتضي من الاستعمار ، وبوجه التفصيل ، عزل المكافح في حلبة الصراع الفكري ، من جانبين :

أولاً : أن ينفر من أفكاره الرأي العام في بلاده ، بجميع الوسائل الصالحة لذلك •

ثانياً : أن ينفره هو نفسه ، من القضية التي يكافح من أجلها بأن يشعره بعبث كفاحه •

فكيف يطبق الاستعمار فعلاً ، هذين المبدأين في ظروف معينة أي عندما تدخل فكرة على المسرح في صورة كتاب •

إنني أوضحت في دراسة أخرى كيف تصرف الاستعمار في مثل هذا الموقف فيضع أصبعه على « زر » خفي لينطلق بذلك تيار من ردود أفعال مضادة للفكرة التي آذنت بظهورها مراصده عندما دخلت الى المسرح[1] .

فيكفينا اذاً أن نصف للقارىء حالة حدثت فعلاً : عندما ظهرت الطبعة الفرنسية من كتابي « شروط النهضة ومشكلات الحضارة » منذ خمسة عشر عاماً، بالجزائر ، وضع الاستعمار اصبعه على « الزر » الخفي ، فانطلق التيار المضاد بثلاثة ردود أفعال .

فقد صدر رد الفعل الأول في جريدة « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » في مقالتين يصف صاحبهما الكتاب بأنه في مجمله ، مقتبس من مقالات نشرتها جريدة باريسية كبرى ، هي لسان حال الحكومة الاستعمارية تقريباً ، بامضاء مراسلها في القاهرة ، المسيو فلان ...

ثم أتى رد الفعل الثاني في جريدة حزب وطني ، في مقالتين أيضاً ، يتظاهر صاحبهما بنقد نزيه للكتاب ، فأورد نقده تحت عنوان « خطوة مخطئة واختبال »، وهو عنوان ذو إيحاء ... كما نرى .

وأتى ، في الأخير ، رد الفعل الثالث في الجريدة المركزية للحزب الشيوعي ، بالجزائر ، وعلى الرغم من ان الموقف الشيوعي ، على العموم ، يتسم بطابع « النقد الذاتي » ، الذي من طبيعته التحري ، حتى لا يترك للخصم فرصة ، فاننا نرى الصحيفة الشيوعية المركزية تحقق هي الأخرى ، خطة الاستعمار تجاه هذا الكتاب فتصوره ، للرأي العام ، الذي لا يتصل به مباشرة لأنه مكتوب بلغة اجنبية ، ولأن الأمية غالبة في البلد ، تصوره بأنه « كتاب يستحق الرضا من الاستعمار » .

ويجب ان نضيف إلى هذه المواقف الثلاثة ، موقف الصحافة التقدمية التي

---

(١) راجع كتابنا « شروط النهضة » .

لم تقل كلمة في الموضوع ، فكان سكوتها من ذهب بالنسبة للاستعمار •

فلو حللنا ، الآن ، هذه القصة ، التي أوردناها ، دون أي تعليق عن تركيب عناصرها الأساسية ، فانه يصعب علينا أن نجد فيها امضاء الاستعمار ، لأنه في الواقع لم يكن من مصلحته أن نراه • وهكذا نلاحظ ان القصة قد حققت فعلاً المبدأ الأول ، إذ اننا لم نر في سطورها ان للاستعمار دخلاً في تصميمها ، وتنسيق عناصرها وترتيبها •

ولكن النظرة الفاحصة تبدي بين السطور ، الأشياء التي تخفيها السطور ، فلو حللنا بعض التفاصيل التي لا يمكن أن نعمد اليها هنا حتى لا نقع في اطالة غير ممكنة ، فاننا سوف نرى في التفاصيل التي أتت مثلاً في جريدة العلماء ، الإتقان الذي نجده عادة فيما يصنعه الاخصائيون الذين يعملون بالمراصد الخاصة بالصراع الفكري ، ولتوضيح هذه الملاحظة ، بصفة عابرة ، نقول على سبيل المثال ، ان صاحب المقالة التي تنسب كتابي الى مراسل جريدة كبرى تصدر ، بباريس ، هو ـــ كما نعرفه ـــ لا يقرأ هذه الجريدة حتى يمكنه أن ينسب شيئاً اليها • واذن فهو مكلف بأن يقول هذا القول •

المهم اننا إذا تجنبنا الخوض في تفاصيل جزئية وعدنا الى القصة في مجملها• فسوف نجدها بعد ان حققت المبدأ الأول الذي يحيطها بالغموض الكافي • قد حققت المبدأ الثاني أيضاً ، بما ان المعركة لم تعد بين كاتب يدافع عن قضية وبين الاستعمار الذي تتناقض مصالحه مع تلك القضية ، بل هي قـد أصبحت ، في ظاهرها ، معركة بين ذلك الكاتب وبين هيئات وطنية تزعم بأنها تمثل تلك القضية •

وهذه الخطة التي تحوّل طبيعة المعركة لصالح الاستعمار تطبّق بنجاح في ميدان كفاح الجماهير • كما تطبق في ميدان كفاح الفرد ، فحينما تكوّن الأحداث والظروف وحدة كفاح شاملة ضد الاستعمار ، نرى هذا الأخير يشرع في خلق وحدات كفاح جزئية ، حتى يحدث الخلاف والتنافس بين القوى التي تقاومه ،

فتنحرف بذلك المعركة مـن معركة بين قوى الشعب المستعمَر والاستعمار الى معركة بين القوى الشعبية ذاتها ، كما وقع هذا في كوريا وفي الصين وفي الهند بعد التقسيم ، وفي أندونيسيا إلى حد ما .

وهذه الخطة تحقق للاستعمار هدفين :

أولاً ــ تخطيط من المستوى الروحي ، أو الإيديولوجي ، الذي كانت تدور فيه المعركة ضده .

ثانياً ــ تشتيت القوى الموجودة في المعركة .

فأما النتيجة الأولى فانها تنساق بطبيعة الحال : فالمعركة إذا ما فقدت طابعها كوحدة شاملة ، فانها تفقد بذلك من معنوياتها وشيئاً من قداستها في نظر الجماهير .

وهذه الملاحظة تفسر لنا ما يحدث في بعض المعارك التي لا زالت تجري تحت أعيننا اليوم .

والأمم التي لها تجربة في ميدان الكفاح السياسي ، تعلم أن أكبر مواقفها في التاريخ ، هي المواقف التي أملاها ما يسميه العرف السياسي « الوحدة المقدسة » ، مثل الوحدة التي كونتها الثورة الفرنسية[1] ، للقيام في وجه الحلف الملكي الأوربي .

إن أكبر لحظات التاريخ هي دوماً اللحظات التي تتكون فيها وحدة كفاح شاملة ضد الطبيعة أو ضد البشر .

فعندما تكون المعركة على هذه الصورة فانها تكون في مستوى القداسة . وذلك هو مستواها الإيديولوجي في أوجه .

ولكنها بمجرد ما تفقد طابع الشمول فإنها تهبط من هذا المستوى .

(١) في عهد من عهود تلك الثورة عندما تالفت الهيئة الثورية المعروفة باسم « هيئة السلم العام » (Comite de salut publc) .

وعليه فالمعركة تصاب بالتدهور والانحطاط الإيديولوجي بمجرد ما تحتل فيها وحدات كفاح جزئية مكان وحدة الكفاح الشاملة ، وبمجرد ما يحدث هذا الانحطاط أو الهبوط في المستوى الروحي ، فإن القوى المكافحة تتبدد .

وهذه هي النتيجة الثانية .

وإننا نجد في تاريخ الاسلام صورة هذا التدهور الروحي ، الذي يؤدي حتما إلى التدهور السياسي ، كنتيجة ثانية .

إن واقعة صفين فصمت الوحدة الشاملة التي بناها محمد ﷺ بأمر من ربه ، فأحطت بذلك من مستوى المعركة التي بدأت يوم بدر ، وهـذا التحطيط أو الهبوط الايديولجي لم يلبث أن أتى بنتائجه المشؤومة في الميدان السياسي ... مصداقاً لقوله عـز وجل (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) .

إن الاستعمار يطبق ضمناً هذه الاعتبارات في خططه المقررة ضد كفـاح الشعوب المستعمرة : إنـه يهدف ، أولاً ، الى التحطيط من مستوى كفاحهم الايديولجي ، وذلك بأنه يحاول قبل كل شيء فصم الوحدة الشاملة التي تضفي على ذلك الكفاح القداسة وتهبه قيمة خلقية عليا ، وهو يعلم أنه يحقق بـذلك الأهداف السياسية المقصودة .

ومن الطبيعي ، أن يكون فكر في تطبيق هذه الخطة ، ضد وحدة الكفاح الشاملة التي تكونت في باندونج .

انه فكر لا شك ، كيف يحط من مستوى هذا الكفاح العارم . ويحل فيه وحدات كفاح جزئية مكان وحدة الكفاح الشاملة التي بعثت في قلبه الرعب لأنها مكونة من شعوب افريقية وآسيا جميعاً ..

فكي يحقق الهدف الأول ما كان عليه الا أن يبذل ما يستطاع من أجل أن لا تجد هذه الشعوب قاعدة نظرية في صورة كتاب مثلا ، تركز عليها ايديولوجية

كفاحها ، ويجب أن نعترف بأنه نجح حتى الآن في تحقيق هذا الهدف الى حد ما ، وربما يقول التاريخ كيف نجح ...

أما بالنسبة للهدف الثاني ، فإن الاستعمار حققه أيضاً الى حد ما بتصرفه إزاء بعض الاستعدادات الشخصية ، وبتشجيع بعض المبادرات أو الايحاء بهـا عند الحاجة .

فحينما يعقد البانديت نهرو ، خلال ١٩٥٦ ، مؤتمراً للكتّاب الآسيويين بنيودلهي ، فانه من دون شك يعمل في نطاق تحرير الشعوب المستعمَرة ، ولكننا إذا فحصنا عملاً كهذا بنظرة أدق ، فان جانباً منه يبدو لنا كأنه يلتقي بنـوايا الاستعمار ، وذلك بقدر ما يكون في انعقاد مؤتمر الكتاب الآسيويين تعويض عن وحدة كفاح إفريقي آسيوي شاملة بوحدة كفاح آسيوي جزئية .

وقد نعلم ، على ضوء ما بينا ، أنه بمجرد هذا التعويض يحدث هبوط في المستوى الايديولوجي ، في الصراع الذي نشأ في مؤتمر باندونج ، وهذا الرجل السياسي الكبير ، الذي رافق غاندي في مرحلة التحرير ، قدم بهذه الصورة ، في الميدان الفكري ، سابقة سيستغلها الاستعمار ، في الميدان السياسي ، بمساعدة رجل سياسي آخر ، هو الدكتور نكرومه ، الذي يقوم بعقد مؤتمر أفريقي بأكره في اليوم الذي يجتمع فيه مؤتمر إفريقي ــ آسيوي بكوناكري ، أو بعبارة أخرى : الرجل الذي يحاول أن يحل وحدة كفاح جزئية مكان وحدة الكفاح الشاملة .

وقد نعلم ما في هذه المبادرة من تحقيق لخطة الاستعمار بهدفيها المذكورين .

كما أننا نعلم عندما ينعقد مؤتمر الكتاب الزنوج في مكان ما ، أن حدثاً كهذا يدل على نهضة الشعوب المستعمرة الفكرية ، ولكن لا ننسى ما قد يكون وراءه من تقديرات الاستعمار ، حتى لو فرضنا اننا لا نعلم مباشرة شيئاً عن هـذه التقديرات بالنسبة الى الصراع الإفريقي ــ الآسيوي .

وهكذا يستطيع الاستعمار ، بطرق مختلفة ، تحويل المعركة التي تنشأ بينه

وبين القوى التحررية ، إلى معركة ، أو على الأقل إلى منافسة ، بين تلك القوى نفسها ، كما رأينا كيف يحوّل معركة بينه وبين فرد ــ يكتب مثلاً ــ إلى معركة بين هذا الفرد وإخوانه أنفسهم •••

وهكذا فلو عدنا الى القصــة الآنفة التي دلتنا على الخطــة التي يطبقها الاستعمار ليحوّل اتجاه المعركة عندما تكون في مستوى الفرد ، ولو عبرنا الآن عن مفادها بمصطلح علم النفس ، فسوف نجد ان الاستعمار استطاع ، بمجرد وضع أصبعه على زر خفي ، أن يحوّل المعركة الى عملية نفسية ذات هدفين :

فمن جانب نرى أنه قد ألقى على الكتاب ، الذي صدر ، كل الأضواء التي تشوه صورته أمام الرأي العام ، وتخلق حوله شبهات ، ليس من السهل ازالتها في بلد تسيطر عليه الأمية والسياسة العاطفية •

ومن جانب آخر ، نرى أنه قد خلق ، أو حاول أن يخلق ، في نفس الكاتب عقدة ، محاولا أن يفصله بذلك عن القضية •

وهذان الجانبان يمثلان في الواقع ، تطبيقاً محكماً للمبــدأ الثاني ، حيث يستطيع هذا الاستعمار أن يحطم وحدة الجبهة المعادية له في البلاد المستعمَرة ويعطل نشاطها الفكري كيما يبقى النشاط السياسي أعمى ، والأفكار دون جدوى •

ومع ذلك فنحن هنا لا نحاول تفسير ظاهرة لا نملك كل أسرارها ، إذ ليس لدينا معلومات مدققة تبين كيف نسق الاستعمار تفاصيل القصة ، حتى تأتي ردود الأفعال ، الموجهة ضد الكتاب موحدة رغم صدورها من هيئات مختلفة ، وإنمــا نريد أن نجعل هذه الظاهرة موضع التأمل لدى القارىء ، ليدرك قوة الاستعمار في هذا الميدان •

وأمام هذه القوة يدرك خطورة الموقف الذي يوجد فيه من يكافح في هذه الجبهة عندما يتم عزله على الصورة التي أشرنا اليها •

وقد يفهم القارىء من خلال المبدأ الأول والثاني ، أنه ليس من مصلحــة

الاستعمار عندما يريد خنق فكرة ، أن يدفع بجهاز البوليس والقضاء في المعركة ، إلا في بعض الظروف ، عندما يتأكد علمياً أن الخطة المدبرة قد تؤدي بالفرد الذي يجد نفسه في هذه الظروف إلى حافة الانتحار ، ذلك لأن الخطة تكون قد أحاطت بجوانب حياته كلها ، وطوقته مادياً وأدبياً ، حتى يكون على وشك اليأس وحينئذ ربما يتبين للاستعمار أن من كان قريبا من اليأس سيكون قريبا من الانتحار •

إن المختبرات التي تقوم أعمالها على علم النفس ، توجه هذه العمليات بكل دقة ، حتى يكون فصل من فصول المعركة في بعض الأحيان قريباً من التجربة التي يجربها علماء الحياة على بعض الحيوانات الصغرى ، لاكتشاف حقيقة من حقائق علمهم وهكذا يصبح الكاتب الذي يحاول نشر فكرة ، حيوانا تجرب فيه بعض وسائل الصراع الفكري ، ولا يكون طبعاً ، لهـذه التجربة العلمية ، من نوع الخاص ، أي صدى في الشارع أو في الصحافة • إذ حينما يمر الكاتب بمراحل هذه التجربة ، فانه يمر في الواقع بمراحل عملية نفسية موجهة ، فهو يطارد ويحاصر ويهدد بالاغتيال وبالتعذيب ولا ينتهي الامر إلى هذا ، لأن الاستعمار كان يهدف في الواقع الى اغتيال أشنع ، وإلى تعذيب أفظع ، يبقى سرهما في خفايا النفوس المحطمة ، وفي أوضاع أدبية ومادية أضر بالكاتب وبأسرته من الشنق أو الاحراق•

وقد يحدث في مثل هذه الظروف أن لا يجد الكاتب مخرجاً سوى أن يوجه صرخة ليخرق بها الصمت الخانق الذي أحاطه به الاستعمار ، فيوجه حينئذ كتاباً مفتوحاً الى الرأي العام عن طريق صحيفة وطنية ، غير أن الاستعمار قد أخـذ الحيطة من هذه الناحية أيضاً ، فتمر الأيام والأسابيع وتأتي أعـداد الصحيفة متوالية • دون أن يجد الكاتب فيها الصدى الذي يخلصه من التطويق ، الصدى الذي يأخذ بثأره من عدوه •

لقد خيبت الصحيفة الوطنية رجاءه ، وهنا يجد الكاتب نفسه فجأة أمام نوع من الحيوان مزود بضمير فيه شق ، كذلك الشق ، لصندوق الصدقات من حيث

توضع فيه الصدقات ، والاستعمار يلقي في هذا الضمير ما شاء من النقود حتى يسخره في تلك اللحظة لما يريد تحقيقه في جبهة الصراع الفكري •

ولا شك أنها أقسى لحظة يواجهها المكافح ، الذي يشعر فيها أن عزله قد تم فعلا من جميع النواحي ، وهنا تتفتح الهاوية تحت قدميه ، وإذا بالظلام يحوطه ، ويغمر أعماق حياته فلا يرى أمامه طريقاً ولا حيلة •••

تلك هي أقسى لحظات الصراع الفكري • لأن المكافح بـدأ يشعر بعبث موقفه • كأنما ألقى بنفسه للتهلكة دون جدوى ، ولا شك أن هذه الظروف تتنوع أشكالها ، لكنها تتمسك بالطابع الذي يضعه الاستعمار على كل ظروف الصراع الفكري في البلاد المستعمرة تطبيقاً للمبدأين الذين يكونان منهجه العام في هـذا الصراع ، وبعبارة أخرى : إن الاستعمار سوف يجد في كل الظروف من يسلم اليه مفاتيح القلعة عندما يلجأ اليها المكافح ليتحصن فيها خلال معركة عنيفة ، إنه سوف يجد من يسلمه تلك المفاتيح لأنه وضع بعض النقود في فتحة ضميره •

وغني عن البيان أن صيحة الفدائي ، أو إشارة الخطر التي أطلقها قد تذهب دون أن تنبه الرأي العام ، لأن الاستعمار استطاع عزله وإحاطته بصمت عميق •

ان هذه هي حقيقة الوضع الذي يوجد فيـه الفدائي ، في بعض مراحل الصراع ، ولكن الأمثلة البسيطة التي قدمناها لا تعطينا الفكرة الصحيحة عن دقة الاستعمار ومهارته في هذا الفن •

ان فنه يبلغ أوجه من الإحكام ، عندما لا تبقى لديه الوسائل المادية ، بمعنى أنه لا يستطيع استخدامها في ظروف معينة ، وحينئذ تضطره تلك الظروف الى الوسائل العلمية البحتة •

ماذا يفعل الاستعمار عندما يكون ممكناً ، أن يتصرف في المعركة بالإرهاب والاغراء ، وبضمير يوجه بنقود يلقيها فيه من فتحته ، وبما يملي على صحيفـة

« وطنية » كي تلتزم السكوت ، أو أن تختفي في ظروف معينة ، عندما يكون غير كاف أو غير ممكن ، تطويق المكافح بالصمت وبالظلام •

ماذا يفعل حينئذ الاستعمار ؟

يجب أولاً أن نرى كيف يرتبط الصراع الفكري بالقضية السياسية في البلاد المستعمرة : ان هذه القضية تشتمل على مسألتين هامتين هما حسب اطرادهما الطبيعي :

أولاً : تجميع قوى الكفاح التحرري من أجل الاستقلال السياسي •

ثانياً : توجيه هذا التحرر من أجل الاستقلال النفسي •

فبالنسبة للمرحلة الأولى قد بينا كيف يحرص الاستعمار على أن لا تتجمع تلك القوى تحت راية سياسة مقعدة وكيف أنه يستخدم من أجل ذلك وسائل مختلفة • وقد رأينا مثلاً كيف يستخدم المنديل الأحمر والأضواء الموجهة •

وان علينا هنا أن نكوّن فكرة عن المرحلة الثانية ، حتى نعرف صورة الصراع الفكري في هذه المرحلة •

فكفاح الهند وباكستان ، مثلاً قد بدأ في ظروف واحدة ، وعلى أرض واحدة ، وقد حققت القوى التحررية التي تجمعت تحت راية هذا الكفاح الاستقلال السياسي كما نعلم •

كما أننا قد رأينا كيف انتهت هذه القوى ، بعد أن حققت الاستقلال السياسي ، اذ ذهب بعضها مع الهند ، وبعضها مع باكستان في اتجاهين مختلفين تمام الاختلاف •

ونحن نرى اليوم ، بعد أن تحقق استقلال تركيا على يد أتاتورك كيف أصبح من خلفه في أنقره يتصرف في هذا الاستقلال لصالح الاستعمار حتى أصبحت تركيا قاعدة للتجسس لصالح أمريكا •

من هنا نعلم مدى الأهمية التي يعطيها الاستعمار الى هذه المرحلة والمكان الذي تحتله في التخطيط العام لسياسته العليا وبالتالي المكان الذي تحتله في الخطة المرسومة للصراع الفكري في البلاد المستعمرة •

فاذا ادركنا أن مقتضيات تلك السياسة العليا تفرض رقابة شديدة على نقل وبيع السلاح في البلاد المستعمرة ، وقد أدركنا ذلك بالتجربة المباشرة عندما قامت معركة التحرر ، لا بد أن ندرك أيضاً أنها تفرض رقابة شديدة على حركة الأفكار في تلك البلاد •

ولكن تصور هذه الرقابة الأخيرة سوف يكون ضعيفاً أو غير ممكن في تلك البلاد لسببين بيناهما فيما تقدم وهما :

أولا : الأمية السائدة في البلد التي تجعل الشعب غير مؤهل إلى الصراع الفكري ، لأنه يجعل قيمة الأفكار ، كأدوات كفاح وتحرر •

ثانياً : السياسة العاطفية القائمة في البلاد تجعل القيادة السياسية على حذر من الأفكار فهي تخشاها كما يخشاها الاستعمار نفسه ، لأنها عادة لا تتفق مع مركب الأفراد الذي يمثل تلك القيادة • وهكذا نجد أنه عندما يرتفع الستار عن حدث في الصراع الفكري ، فان هذا الحدث يبدأ كمسرحية ذات شخصيات خمسة :

فكرة كشفت عن وجودها المراصد المختصة بالصراع الفكري ؛ وشعب يجهل دخولها على المسرح ؛ وقيادة تتجاهلها ؛ وصاحبها الذي يحاول تبليغها ، والاستعمار الذي حاول خنقها •

ولقد سبق أن تساءلنا كيف يفعل الاستعمار عندما يفقد الوسائل المادية وتضطره الظروف الى الوسائل العلمية البحتة •

إن هذا السؤال يتضمن في الواقع جانبين يتعلق أحدهما « بالكيفية » والآخر « بالسببية » •

ولسوف تتناوله، من الجانب الأول فقط، أعني سوف تتساءل « كيف » يفعل الاستعمار حتى يخنق الأفكار، لا « لماذا » يفعل ذلك، لأننا قد نعلم أحياناً السبب الذي يدفع الاستعمار لمقاومة الأفكار، دون أن نعرف « كيف » يقاومها.

فماذا يفعل عندما تعطيه مراصده إشارة عن ظهور فكرة ؟ كيف يتصرف ليحول بينها وبين المجتمع الذي يحاول صاحبها نشرها فيه ؟

هذا هو موضوعنا

إنه ينبغي لنا أن نتصور الفكرة كهدف يصوب إليه الاستعمار مدفعيته : فالفكرة هدف يمكن إصابته، منفصلة أو متصلة بصاحبها .

ولسنا نريد هنا أيضاً أن نعالج الموضوع في رحابته وسعته . وإنما نريد فقط، أن نلقي عليه ضوء تجربة خاصة نرى خلالها كيف يستخدم الاستعمار الوسائل العلمية في الصراع الفكري، في حالة معينة . إننا نراه يصوب مدفعيته على اسم كاتب ليصيب فكرته بحيث يصبح الاسم نقطة القياس لتوجيه خط النار لمدفعيته .

إننا نعلم أن الترسانة الاستعمارية التي تعد سلاح الصراع الفكري، مزودة بمختلف أنواع القذائف ولكن نريد وصف نوع خاص منها، يمكن أن نقول إن مكتشفه هو العالم الروسي بفلوف، اكتشفه حينما قعد، على ضوء تجاربه المشهورة، علم النفس التجريبي، الذي يهتم بدراسة رد الفعل المنعكس (Ré Flexologie) .

وربما أوردنا، ضمناً، إشارة إلى هذا الموضوع في القصة التي ذكرناها عند الحديث عن الكتاب الذي نشر بالجزائر، فان القارىء أدرك لا شك بين السطور أن ردود الأفعال التي تقبلته بها الصحافة « المناضلة » كانت في الواقع طلقات من مدفعية الاستعمار، بقذائف من نوع خاص : النوع الذي يحدث في الرأي العام شئياً من النفور نحو الكتاب .

فالقصة، نفسها، تدخل في نطاق الاسلوب العلمي الذي يتبعه الاستعمار في

الصراع الفكري ، وتعطينا فكرة عامة أو مقدمة عن كيفية استخدام بعض قواعد علم النفس في هذا الصراع ، كما سنشرح ذلك بشيء من التفصيل فيما بعد .

وربما عرضت للقارىء إشارة إلى هذه القصة في الترجمة العربية للكتاب نفسه ، عندما نشرت بالقاهرة سنة ١٩٥٧ ، حيث ذكرت مجملها في هامش إحدى صفحات تلك الترجمة ، لإلفات نظر القارىء العربي إلى إحـدى الظواهر التي تؤثر في الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، ألا وهي القابلية للاستعمار .

ولكن حين أوردت هذه القصة ، على سبيل التنبيه للقابلية للاستعمار ، لم أكن أتوقع أن الاستعمار كان يعد في الوقت ذاته خطة لمقاومة جميع الكتب التي أتيت إلى القاهرة من أجل نشرها بالعربية .

وحيث لم يبق في استطاعته أن يمنع صدور هذه الكتب ، بمجرد وضـع أصبعه على زر ، أو باصدار أمر قاهر ، كما كان الأمر ممكناً في الجزائر ، فلم يبق إذن لديه إلا أن يستخدم وسائل أخرى ، ومنذ هذا الحين تصبح خطته العلمية في الصراع الفكري ، في كل وضوحها ...

ان الكاتب يشعر ، في بعض الظروف ، أنه ذرة يستطيع الاستعمار تحطيمها بكل سهولة ، لولا أن تلك الظروف تضطره إلى احترام الشكليات ، التي تصبح في النهاية هي الحصانة الوحيدة لذلك الكاتب حينما يجد نفسه فرداً معزولاً عاجـزاً .

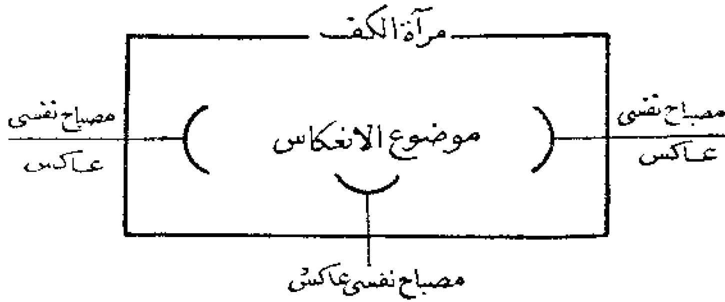
ولكن احترام الشكليات هو نفسه من الأسباب التي تضفي على المعركة الطابع الخاص ، عندما يلجأ الاستعمار إلى الوسائل العلمية البحتة التي نحن بصدد الحديث عنها .

فلنعد ، من هذا الاستطراد ، إلى قصة صدور ترجمة « كتاب شروط النهضة ومشكلات الحضارة » التي تضمنت كما قدمنا ، إشارة وجيزة الى هذا الجانب من الصراع الفكري .

فهي تكوّن واقعة مادية من الصراع الفكري ، في مرحلة من مراحله ، واقعة تعطينا الفرصة لنرى ، رأي العين ، كيف أن الاستعمار يستغل القواعد العامة في علم النفس فيطبقها على وسط إنساني معين قد درس من قبل استعداداته الخاصة بالنسبة الى مقتضيات الصراع الفكري ، ونسيج القصة التي تتحدث عنها هنا يشمل هذه المقتضيات وعلاقتها بقوانين علم النفس •

والطريقة في ذاتها تتسم ببساطة ملحوظة ، حيث إنها تمثل في صورتها النظرية ما يمكن أن نسميه « مرآة الكف » أي المرآة التي تعكس عليها حالة الحرمان ، أو حالة تفور إزاء الشيء الموضوع للانعكاس •

والصورة النظرية لهذه المرآة تكون على النمط التالي :



وهذا التخطيط يطبق على علم النفس ، قاعدة بصرية بسيطة : اننا نعرف أن صورة الشيء تتغير حسب الأضواء التي تسلط عليه ، وتطبق هذه القاعدة في فن التنوير • بالخصوص في المتاحف حيث نريد عرض بعض الاشياء في ضوء خاص •

هذه القاعدة تطبق أيضاً في الإطار العقلي «فموضوع الانعكاسات » هو هنا « فكرة » نريد أن نعطي عنها صورة معينة ، وبما ان الفكرة شيء لا يرى ؛ أي شيء لا يمكن عكسه على مرآة مادية ، فيجب ان نعكسه على مرآة ذهنية ، بإضافة ما يجعله مرئياً في هذه المرآة ، فمن أجل هذا يكون من المفيد ان تلصق الفكرة

باسم صاحبها ، حتى تجرى عليها العمليات التي تجرى على « الفكرة المتجسدة » •

وبعبارة أخرى ، أن هذه العمليات تجرى في الواقع على اسم صاحب الفكرة، ثم يلحق أثرها النفسي الفكرة بالتبعية ، أي أن الانعكاسات التي تسلطها « مرآة الكف » على الاسم ، تنعكس في النهاية ، عن الفكرة •

هذه هي القاعدة العامة •

والآن فلنشرح كيف تطبق هـذه القاعدة في حالة وقعت فعلاً ، وكيف تركب ، مرآة الكف في مثل حالة كهذه •

والواقع أنه في الوقت الذي كانت فيه ترجمة كتابي « شروط النهضة ومشكلات الحضارة » تحت الطبع ، وأصبحت الترجمات العربية لمؤلفات أخرى متوقعة ؛ ظهر في مكتبات القاهرة كتاب كبير يضم مجموعة المقالات التي نشرها السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في مجلتهما « العروة الوثقى » والقارىء يعلم لا شك ما يكون لكتاب هذا عنوانه من قيمة كلافتة ، لأنه يعلم ما لهذا العنوان من صدى في تاريخ العالم الإسلامي الحديث ، إذ أن كلمة « العروة الوثقى » تحمل دوي معركة فكرية سجلتها النهضة الإسلامية تحت قيادة الفقيدين العظيمين ، وبخاصة ما دار من جدل بينهما وبين أرنست رينان وجبرائيل هانوتو •

ولا يخفى أن ما يحمله عنوان كهذا ـ « العروة الوثقى » ـ من وقار عند الجماهير الإسلامية ، وما يؤدي الى نفوسها من اشعاع عهد ماجد لا زال حياً في ذاكرتها ، يجعل منه أحسن لافتة يوضع فيها شيء لالفات النظر إليه بصورة معينة ، وإذا استخدمنا مصطلحاتنا نقول : انه يكون خير مرآة تعكس الأضواء التي نريدها على هذا الشيء حسب تصرفنا لتظهره في الصورة التي نتمناها •

ولقد أورد مقدم هذا الكتاب ، ذي العنوان المثير ، اسمي كمؤلف لكتاب معين هو « مستقبل الاسلام » ورجع إليه مرتين في مقدمته ، ولا شك أن هـذا

يشرفني كمؤلف يذكر اسمه على لوحة دعاية مثل « العروة الوثقى » ، ولكن يجب أن أوضح للقارىء أن اسمي قد ذكر على أنني مؤلف فرنسي « عاش في الشمال الافريقي • وامتزج به وأحبه ، واعتنق الإسلام ، ولاقى الاهوال في سبيل الدفاع عنه » •

هذه هي القصة في كل بساطتها ، أو في بساطة مظهرها : فهي في ظاهرها بريئة ومادحة فعلاً ، ومن كتبها ، أو من طلبت منه كتابتها بهذه الصورة قد أودع فيها ، دون شك براءته ونيته الطيبة •

ولكن تجربة ربع قرن علمتني كيف أتعرف على حقيقة شيء من هذا القبيل : فانني أعرف أين تصنع ولماذا تصنع هذه البضاعة فان من وضع عليها خاتمه ، قد طلب منه ذلك كي لا يظهر الاستعمار في المعركة طبقاً للمبدأ الأول من منهجه ، كما بينا ذلك • وهو لا شك قد فعل ذلك دون أن يعرف على أي بضاعة وضع خاتمه•

ونبقى إذا بالفعل أمام قصة بريئة على ظاهرها ، لم يرَ فيها القارىء أثراً لكيد كائد ، وليس من موضوع البحث هنا أن نقول كل ما تعنيه هذه القصة في إطار الصراع الفكري وإنما نريد الاهتمام بما تعنيه في جانب معين بحد ذاته حتى لا نقع في تطويل غير مناسب في هذا العرض •

فنحن نريد هنا أن نعطي للقارىء فرصة التأمل في نبذة معينة من الصراع الفكري ، فليعد نظره إلى ألفاظ القصة التي نحن بصددها ثم فلنتقل له ، لنضعه على الطريق المستقيم : إن مالك بن نبي لم « يعتنق الإسلام » ــ كما يقول صاحب مقدمة العروة الوثقى ــ بل هو يدلي إلى الإسلام بعرق مسلم منذ ثلاثة عشر قرناً على الأقل ، ولعل القارىء حينما يعلم هذه الحقيقة يدب في نفسه شعور غامض بأنه أمام لغز ، يسلمه إلى الحيرة •

ولكن الاستعمار قد أخذ في حسابه جميع العناصر النفسية التي تكون هذا الموقف السلبي ، فهو يدرك أن الوسط الاسلامي مصاب بشيء من ضعف الإرادة

الذي يتركنا في حيرتنا أمام بعض الألغاز فلا نحاول حلها ؛ أو بصورة أعم أننا نقف في منتصف الطريق لا نحاول الوصول إلى نهايته ، وهذا يتجلى في هروبنا من المشكلات حينما تفاجئنا .

هكذا تتجدد المشكلة ، فالاستعمار يدبر مكائده عن معرفة تامة بالنفسية المسلمة ؛ فهو يعرف النقص الذي يمنع عقولنا من أن يضع بين الوقائع الارتباط اللازم الذي يجعلنا نضعها تحت قاعدة موحدة ونستخلص منها حقيقة عامة ، ولا داعي للإطالة هنا ، حيث إنني أوضحت في غير هذا المكان هذا النوع من النقص الذي لم يخطىء أحد المستشرقين الانجليز حين أطلق عليه « الذرية » أي الاتجاه إلى اعتبار الوقائع والأحداث مجزأة منفصلة ؛ فردية ، دون أي رباط عضوي بينها ؛ كأنما هي في مجموعها لا تكون وحدة معينة ، أي حلقة من التاريخ وفصلاً من فصوله ، وإنما تكون ، في النظرية الذرية كوماً من الأحداث والوقائع جمعتها الصدفة ، في غير ما تركيب ولا تنسيق فلا يمكن أن نستخلص ، من كوم كهذا ، كونته الصدفة المحضة أية نتيجة عملية ؛ أي قانوناً عاماً نطبقه في حالات خاصة .

وهكذا عندما نفصل القصة التي نتحدث عنها ، عن الملابسات التي تتضمنها كتفصيل من تفاصيلها وحلقة من سلسلتها في اطراد معين ، فاننا سوف نعتبرها « غلطة مؤسفة » على الأكثر ، وهذا كل ما نأخذه من واقعة عندما نعزلها عن قريباتها دون أن تفقد الواقعة ، بسبب موقفنا ، البسيط والمبسط للأشياء ، تأثيرها النفسي في سير الصراع الفكري ، كما سنبين ذلك وكما يجب أن نفهم ذلك بداهة، إذ أن جهلنا لميزات شيء ما ، لا يعني أنه يفقدها فالجاذبية كانت جاذبية قبل نيوتن .

أما إذا نظرنا للواقعة من خلال شبكة علاقاتها المنطقية العضوية فان نظرتنا تشملها في نطاق اطراد تاريخي وتسلسل حوادث تجعلنا نقدرها كنتيجة للواقعة التي قبلها وكعلة للتي سوف تأتي بعدها ، وحينئذ سوف يتحدد مركزها في الصراع الفكري . وتظهر لنظرنا أهميتها السياسية ، إن أهميتها الحقيقية لا تبدو لنا حينما

تكون منفردة بل حينما ننظر إليها بمقتضى قرابتها من وقائع أخرى ، أو بتعبير آخر بمقتضى شبكة علاقاتها في اطراد معين يعطيها معناها الصحيح ، بقطع النظر عن حرفية مضمونها ، الذي قد يكون بسيطاً جداً •

وهذا ما يجب أن نراعيه بالنسبة إلى كل تفصيل يتصل بحياة الأفكار وبحركتها بأن نقدر حساباً لكل جزئية تتضمنها ملحمة فكرة تكون حلقة من حلقات الصراع الفكري •

فينبغي علينا إذن أن نتناول « الأغلوطة » التي وردت في مقدمة العروة الوثقى ، على أنها جزء من اطراد معين ، أي كنتيجة للعنصر الذي سبقها ، وكمقدمة للذي سيتلوها •

فنحن نجدها مسبوقة بعنصرين مفسرين لها ، لا بعنصر واحد : إنها مسبوقة بصدور ترجمة عربية لأحد كتبي في لبنان ، نشرت دون علمي ثم ألغيت منها نبذة وجيزة عن حياتي ، كان الناشر الفرنسي أضافها للطبعة الأصلية طبقاً للعرف المعمول به في بعض دور النشر بفرنسا •

فيجب إذن أن نقول أولاً إنه لولا التصرف في أحد كتبي دون علمي ، وثانياً لولا اغفال نبذة عن حياتي في الطبعة الفرنسية لما أمكن لصاحب مقدمة العروة الوثقى ، أن يرجع لكتابي مرتين ، في سياق معين • ثم ما أمكنه أن يجد مسوغاً لإصدار حكمه عليّ بأنني « كاتب فرنسي اعتنق الاسلام » •

وعليه فالاغلوطة ، مهما كانت مقصودة أو صادرة عن سهو ، فانها بحكم الوراثة النفسية التي تنشأ ، في أي الأحوال بينها وبين العنصرين السابقين ، تدخل حتما معهما في اطراد نفسي وفي تسلسل منطقي واحد •

وعليه فكل حكم يفصل الاغلوطة عن هذا الاطراد ، سوف يكون ، على ضوء ما قدمنا ، حكماً « ذرياً » ، أي حكما مخطئا على المسألة •

وواضح أن ظهور ترجمة عربية لكتاب لم أستأذن في ترجمته ، واغفال نبذة

منه عن حياة مؤلفه ، « والاغلوطة » الناتجة عنهما تتصل كلها بنفس السلسلة من الوقائع • ويجب أن اكرر هنا مرة أخرى ، أنني لا أحاول تفسير « علة » الأمر • وإنما اهدف إلى توضيح « كيفية » وقوعه كي لا ننجرّ إلى استطراد لا يناسب هــذا المقــام •

ومهما يكن من امر فعلى ضوء ما قدمنا ، نجد أن الواقعة التي نحن بصددها ، لا تتركب من عنصر ، هو الخطأ الذي صــدر فيما يتصل بشخص في مقــدمة « العروة الوثقى » ولكن من عناصر ثلاثة : ظهور الترجمة السابقة واغفال شيء منها ، ثم الخطأ الذي ينتج عن ذلك •

فالوقائع الثلاثة متماسكة ، واذا ما تناولناها كوحدة ، لم يبق مجال لأن نصدر على جزء منها حكماً قائماً على مبدأ الصدفة ، ولم تعد تمر علينا «الاغلوطة» بسيطة كشأنها في نظر القارىء النزيه ، نظرته الأولى اليها ، بل انها اذا ما نظرنا اليها نظرة تشمل صلاتها السياسية وطبقنا عليها منطق الصراع الفكري ، تــدل بكل بساطة ، على أن الأفكار التي جئت الى الشرق من أجل نشرها ، قد وقعت داخل شبكة المراصد الفكرية التي سبقت الإشارة اليها • وأن حركتها أصبحت موضع رقابة معينة •

هذه هي النقطة التي كان علينا توضيحها أولاً فها نحن قد أوضحناها هنــا بقدر الامكان •

والآن يجب أن نرتب حولها العناصر التي أدلت بها مقدمة العروة الوثقى ، لندرك جيداً كيف تكوّن هذه المجموعة من المعطيات ، المرآة ، التي قدمنا الى القارىء فكرة عن صورتها النظرية ، وعــن كيفية تسخيرها لحاجــة الصراع الفكري •

فالعروة الوثقى ، بحكم صلاتها التاريخية العريقة في ذهن القارىء المسلم ، تكون بالنسبة إليه مرآة مثالية ، يمكن أن تعكس على فكره ما نشاء عكسه ، أي

أنه في امكاننا أن نستخدمها كمرآة « كف » أو مرآة حرمان ، إذا ما عكسنا عليها الانطباعات والخواطر السلبية متذرعين بالمؤثرات النفسية المناسبة كما سنبين ذلك .

أنه يمكننا استخدامها كمرآة كف بالنسبة الى أفكار كتاب من الكتب إذا ما وضعنا اسم مؤلفه أمام « المرآة » بطريقة معينة ، وفي الضوء المناسب للايحاء الذي نهدف إليه .

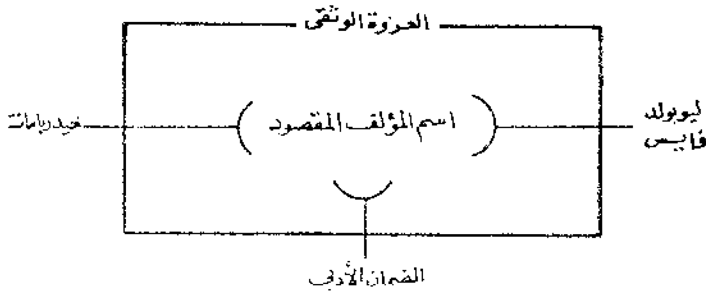
ولا يخفى على فطنة قارىء ما توحي به عبارة «كاتب فرنسي اعتنق الإسلام» عندما تظهر في ضوء خاص ، يسلطه مصباح نفسي مزدوج ، مركب من اسمين آخرين .

فإن اسمي في المقدمة المذكورة يظهر فعلاً بين اسم الأستاذ ليوبولد فايس مؤلف كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » واسم حيدر بامات مؤلف كتاب « مجالي الإسلام » والقلم الذي وضع اسمي بين هذين الاسمين ، هو قلم كاتب قد تذوقت كثيراً ما نشره عن التصوف في الاسلام ، وإذا ما اعترفنا لهذا الرجل من ناحية بحسن النية ، فإنه يجب أن نعترف من ناحية أخرى ، بدقة الاستعمار الجهنمية إذ أنه لا يستخدم اصحاب الشهوات وذوي الميول السيئة فحسب بل يستخدم أحياناً ، ذوي النوايا الطيبة ومعروف كيف يستغل سمعتهم الخلقية مراعاة لمبدأ الغموض في كل الظروف . فهو في المجال السياسي ، بخاصة يستخدم الفضيلة كضمان ليبعد به الشكوك التي ربما تثيرها بعض العلاقات المريبة بين « مركب الافراد » الذي يمثل سياسة عاطفية في البلاد المستعمرة ، والجهاز الذي يشرف بالطرق العلمية ، على الصراع الفكري في تلك البلاد ، ومن أثر هذا المبدأ في التطبيق ، أنه يوضع بين الرؤوس التي تتركب على الآلة الهاضمة رؤوساً لا يطرق إليها الشك .

وإذن فلا غرابة أن يستغل الاستعمار رجلاً طيباً ، دون علمه ليقحم اسمي في « مرآة » مكونة من العناصر التي ذكرناها ، أي من اسم « العروة الوثقى » ، الذي يمثل ، بسبب الهالة التي يحيطه بها تاريخ الإسلام الحديث ، المرآة العاكسة

في اجلى صورها ، ثم اسمي الكاتبين الكبيرين ، باعتبارهما مصباحين نفسيين ، ليسلطا على موضوع الانعكاس الاضواء المناسبة ، ثم اسم صاحب المقدمة الطيب القلب كضمان أدبي يبعد الشكوك عن المرآة •

وعلى هذا فالتركيب العملي يتم على هذه الصورة :



فما هي ، الآن ، الآلية النفسية التي طبقت في التركيب ؟•

أو بعبارة أخرى كيف تصاغ المشكلة في مصطلح علم النفس : في معركة فكرية أعلنت بيدئها مراصد الاستعمار ، وأصدرت في شأنها الإدارة المختصة الأوامر اللازمة •

إنه حينما تبتدىء المعركة ضد فكرة فان اسم صاحبها لا يستخدم كما ذكرنا، إلا في توجيه النيران ، ولهذا يوضع في وسط المرآة ، في مركز تلاقي الاضواء ، أي مركز تلاقي الإيحاءات التي يراد عكسها عليه ، كي يعكسها ، هو بدوره ، على الفكرة المقصودة بالذات •

فمن المؤكد مثلاً أن القارىء في العالم الإسلامي يطلع على الكتب القيمة التي نشرها الأستاذ ليوبولد فايس،ويستفيد منها فائدة عظيمة،ولكن هذه الأفكار ـ لعامل شخصي يصدر عن تاريخ صاحبها ـ يختلف تأثيرها في « العقل » عن تأثيرها في « الضمير » • لأنها خاضعة لذلك العامل يربطها بصاحبها ، فمجهود أحد المؤلفين قد يؤدي إلى إدراك الحقائق ، بينما يؤدي مجهود مؤلف آخر ، ويهدف في

أساسه ، إلى تكييف الحقائق . إذ أن الأول يقدم بعض التفسيرات للقارىء ، بينما يحاول الآخر أن يوحي إليه ببعض « التغييرات » الاجتماعية .

وهذا الاختلاف ، فيموقف المؤلف وتأثيره ، الخاص إنما يحدث ــ في صورة الفعل الإرادي أو غير الإرادي ــ بمقتضى صلاته الشخصية بالوسط الذي يتوجه إليه ، حيث تنعكس في أفكاره ، آلياً كانعكاس لحياته الشخصية فيما يكتب .

وبعبارة أخرى لا يمكن لكتابات الأستاذ ليوبولد فايس أن تقدم للوسط الإسلامي مطالب « تغييرات » معينة في منهج حياته ، أي أن تقدم له نظرية تقتضي تعديلاً في السلوك الجماعي ، ولا دخل لإرادته في هذا الأمر بل لعله يحدث بصفة لا شعورية تماماً .

وحين نؤكد هذا ، فنحن أبعد ما نكون عن تقييم أفكار الأستاذ ليوبولد فايس وإنما نذكر فقط واقعاً اجتماعياً ــ نفسيا يتصل بالوضع الخاص بهذا المؤلف بالنسبة إلى الأوضاع العامة في المجتمع الإسلامي .

ولسنا نفقد الدليل على ذلك ، لو كنا في موقف التبرير ، إذ يكفينا أن نذكر القارىء بالجدل الذي دار منذ سنوات حول اسمه ، وكيف ساهمت فيه مجلة كانت تصدر آنذاك بالقاهرة ، فقامت بالدفاع عنه ، ولقد ترجمت هذه المجادلة في الواقع المحسوس ، الظاهرة التي تحلل هنا آليتها النفسية .

وما يقال عن الأستاذ ليوبولد فايس يقال مثله عن الأستاذ حيدر بامات ، فان اسمه ككاتب ، يستحق تقدير القارىء ، دون أي شك ، ولكنه قد يكون هناك انعكاس حرماني على أفكاره بسبب التعامل الشخصي الصادر عن تاريخ الرجل.

فإذا حدث أن مؤلفاً أطلق على نفسه ذلك الاسم ــ حيدر بامات ــ في ظروف معينة ، ثم أطلق على نفسه أيضاً اسم جورج ريفوار ، في ظروف أخرى ، فإننا ندرك ما يكون لاسم كهذا من تأثير حرماني على أفكار صاحبه ، كما ندرك في

الوقت نفسه ، أن تلك الأفكار قد تكوّن مجموعة هامة من « التفسيرات » القيمة، دون أن يكون لها فعالية من حيث « التغييرات » الاجتماعية المنشودة .

ولعل القارىء يدرك أننا قد تجنبنا حتى الآن الاعتبارات التي تتصل بالتخطيط السياسي العام ، بينما نعلم أن خطة الاستعمار ضد الأفكار تشمل جانبين ، الجانب الذي يهتم بالشؤون العالمية والجانب الخاص بالبلاد المستعمرة ، كما تجنبنا بصفة عامة ، الخوض في السياسة ، على الرغم من أن محور الموضوع هو السياسة .

فإن الفكرة لا تقاوم إلا لأنها العضو الفعال في الحياة السياسية ولكننا مع ذلك ، تجنبنا الخوض في الإعتبارات السياسية حرصاً منا على ألا تتناول سوى الاعتبارات ذات الطابع الفكري فحسب .

فإذا وضعنا هذه الاعتبارات في محيط المرآة التي قدمنا صورتها فسندرك ما يعكسه جهاز مركب على هذا النحو ، من انعكاسات حرمانية ، عن الاسم الموضوع للانعكاس في تلك المرآة .

فالقارىء المسلم الذي تتجه إليه الأفكار ، المقصودة بالذات ، يعكس عليها، وبصفة آلية ما عكسته في نفسه « مرآة الحرمان » على اسم صاحبها فيكون هذا الإسم ، بنقطة التقاطع حيث تتقاطع انعكاسات الكف والحرمان المسلطة عليه من قبل تلك المرآة ، التي تعكس عليه الإيحاءات السلبية الصادرة عن المعامل الشخصي الخاص بالمؤلفين اللذين اقحم صاحب مقدمة العروة الوثقى بينهما في تركيب الجهاز ، وهنا ينطلق هذا الجهاز من تلقاء ذاته طبقاً للقوانين النفسية المحددة ، التي يجيد الإستعمار استخدامها في ميادين الصراع الفكري ، وهو يعلم أن القارىء المسلم بصفة عامة وبسبب تخلف بلاده لم يمتلك المقدرة الكافية في نقد الأشياء ، حتى إنه لا يؤسس أحكامه على الأفكار ، على جوهرها وطبيعتها مباشرة ، ولكن على صورتها في مرآة معينة أي بعبارة أخرى على الصورة التي يريد الاستعمار إبرازها فيها ، فهو يحكم عليها طبقاً لانعكاسها على بصر ، لا وفقاً

لبصيرته • وبمقتضى الضوء النفسي الذي يسلط عليها من الخارج لا بمقتضى ما في جوهرها من برهان •

والحق أن هذا ليس شيئاً خاصاً بالشاب المسلم ، فهو قد اتصف به عرضا بسبب قصور بيئته بالنسبة إلى النمو العقلي ، حيث إنها تُعَد حديثة العهد في هذا المجال ، حتى إن مرآة العروة الوثقى تجبره في مثل هذه الظروف على ان يعكس ما يتلقاه من اسم الاستاذ ليوبولد فايس والأستاذ حيدر بامات على الأفكار التي أقدمها له في كتبي ، ومما يزيد في استعداده لهذا ما يكون قد سبق في ذهنه عن « كاتب فرنسي اعتنق الإسلام » •

وفي النهاية ، ربما تصبح الأفكار غير مفهومة طبقاً لطبيعتها ولجوهرها ولكن طبقاً لما تبدو في ضوء مصباحين نفسيين •

ومع ذلك فقد يكون للتركيب اهداف أخرى ، خارج المجال الذي خصصناه بهذا التحليل . فقد تكون المرآة زمنية ، تؤجل تأثيرها حتى تؤديه في ظروف معينة . وبصورة عكسية . يصبح الاسم الموضوع في نقطة الانعكاس ، يلقي بدوره . ما تلقاه في هذا الوضع ، على أفكار صدرت في كتاب معين ككتاب « الفكرة الافريقية ــ الأسيوية » على وجه المثال •

وقد يزيد التركيب من الدقة والإحكام ، بصورة شيطانية ، حينما يجعل المؤلف الذي عرض اسمه في هذا الضوء الخاص عاجزاً على أن يصحح الوضع ؛ لأنه من الصعب عليه ، في مثل هذه الظروف أن يقوم بمثل هذا التصحيح • فالمرآة تصبح إذن ، تعمل كشبك للأفكار ، ولصاحبها نفسه ؛ ويكون الاستعمار قد حقق بتركيبها هدفين ، لأنه يكون قد صنع منها شبكة ذات دقة نفسية يتصيد بها الافكار ؛ وفي نفس الوقت ، شبكة ذات دقة أخلاقية لمؤلفها كي يسنعه من رد الفعل •

وتلك على وجه التحديد هي القمة التي تبلغها خطة الاستعمار في الصراع الفكري ويتم فيها بكل دقة تطبيق مبدأ الغموض ومبدأ الفعالية •••

الفصل الثالث

تركيب آخر لمرآة الكف

لو أننا اقتنعنا في هذا العرض بالجانب القصصي ، لكانت القصة التي تابعنا تفاصيلها إلى هنا كافية .. ويمكن إذن أن نسدل الستار على المسرحية التي وضعناها لفصل من فصول الصراع الفكري ، للتعريف بحلقة من حلقات سلسلته .

بيد أننا لا نريد عرض قصة وانما تحليل « حالة » لنظهر ما يتصل فيها بجهود الاستعمار ، من ناحية ، وما يتصل بجمود القابلية للاستعمار من ناحية أخرى .

ولقد يكون مفيداً بعد أن نكون قد لاحظنا هذه « الحالة » في صورة معينة، أن نلاحظها في صورة أخرى ، أي أن نتتبع الموضوع في ظروف وأحوال مختلفة، كي تحيط به من أكبر زاوية ممكنة وكي نقدم عنه للقارىء أكثر ما يمكن من المعلومات .

فلا بأس إذن أن نعود إلى الموضوع في ظروف جديدة حتى نرى كيف يتابع الاستعمار عمله وكيف يجدد خططه حسب الظروف وكيف تستمر القابلية للاستعمار في طريقها ، فلا هي تستفيد من تجربة مرت بها ، ولا هي تحاول أن تستفيد من تجربة تقدم إليها .

إنه لا حاجة بنا الى القول دائماً بأن الاستعمار ولا شك هو الشر ، وأنه صورته المجسمة على الارض ، فنحن في هذه النقطة متفقون .

ولكن من هذه النقطة بالضبط ينطلق طريقان أمام العقل الذي يريد مواجهة هذه المشكلة ، فالطريق الأول ينطلق من سؤال ينبع من نفوسنا ، في قليل أو كثير من الوضوح ، حينما نقول : لماذا هذا الشر موجود ؟

والطريق الثاني ينطلق من سؤال يختلف تماماً عن الأول ، يدركه عقلنا أيضاً في قليل أو كثير من الوضوح ، حينما نقول : لماذا نحن ، المسلمين ، مُعَرَّضون بالخصوص لهذا الشر ؟

ولو أننا أعرنا الموضوع نصيباً من التأمل لوجدنا أن كلا الطريقين يؤدي إلى مواقف ، وإلى نتائج تختلف تمام الاختلاف عما يؤدي إليه الطريق الآخر •

فالسؤال الأول يقحمنا فعلاً في عالم الميتافيزيقا، في اتجاه لا يمكن أن تجد فيه المشكلة المطروحة حلاً عملياً ، أو أي حل ، لأن عناصر المشكلة كلها تصبح خارج نطاقنا • وتحت تأثير مسببات وعوامل لا تخضع لإرادتنا •

لماذا يوجد الشر ؟ ولماذا يوجد الشيطان ؟ ولماذا الاستعمار يمثلهما ؟

هذه الأسئلة تعبر في الواقع عن سؤال واحد في صور مختلفة لا تجدي صورة منها لأنها لا تؤدي إلى موقف سليم ، واقعي وفعّال ، تجاه المشكلة التي تعبر عنها •

والواقع أن ليس لنا أن ننكر على أحد وضع السؤال في هذه الصورة ، ولكن الجواب عليه سيقوده حتماً إلى الميتافيزيقا البحتة مع كل ما يترتب عن هذا من النتائج المنطقية والأخلاقية ، والاجتماعية •••

وإن مما يذكر عن أهل بيزنطة في عهد تدهور حضارتها ، أنهم كانوا يتجادلون في جنس الملائكة : هل هم ذكور أم إناث ••؟ ونحن إذا ما تورطنا في الميتافيزيقا، يمكننا أن نتجادل في جنس الاستعمار : هل هو رجل أم أنثى ؟

ولو ان هذا قد وقع ، فانني على يقين من ان الاستعمار سوف يرينا عورته

كرجل مرة ، وأخرى عورته كأنثى ثم يتركنا في غينا هائمين •• وربما تنشأ عندنا مدرستان ، ويظهر في هذا الأمر مذهبان ، ولا شك فإنه حينئذ سوف يبذل كل مافي وسعه لبث روح الجدال بينهما ، حتى تنصرف كل الطاقات العقلية ، في العالم الإسلامي إلى هذا الجدال العقيم ••• ثم عندما يؤول الجدال إلى مشاجرة فسوف يسعى الاستعمار من بعد ذلك ، حتى يقر في أذهان كل من الطائفتين ، أن كل من لا يشارك في هذا الجدال وتلك المشاجرة خائن ، كل من لا يقول إن الاستعمار أنثى أو ذكر ••• يصبح ، في نظر المذهبين ، مرتداً ، خائناً •

وبطبيعة الحال ، فإن الاستعمار سوف يقوم هو نفسه ، وعلى حسابه الخاص ، بنشر هذه الإدانة ، وبتعليق نصها على الجدران في المدينة •••

فهذا شيء لا غرابة فيه •

ولكن فلنترك هنا الجدال عن عورة الاستعمار ، لنرى ما هي نتائج هذا الموقف في الطور العقلي والاجتماعي في البلاد الاسلامية •

فإننا حينما نضع المشكلة في هذا الاتجاه الميتافيزيقي وننظر نتائجها في سلوك الفرد بالنسبة الى الاستعمار ، فسوف يتبين أنه لا بد له من أن يكون في إحدى حالتين :

١ ـــ حالة فيها نوع من العبادة والخنوع •

٢ ـــ حالة فيها الثورة والحقد •

ونحن نشاهد فعلاً هاتين الحالتين في المجتمع الإسلامي منذ أخذ يشعر بالاستعمار ، ويسعى لتخليص نفسه منه : إننا نجد من بين المسلمين من يرى فيه الشيطان ، فيعتريه الهول منه ويهزه الغضب من الشعور بأنه الشيطان •

ومنهم من يرى فيه إلهاً ، فيعبده لأنه يتصور أن النعم بيده •• في الدنيا على الأقل •

وكلتا الحالتين ، هما في الواقع ، نتيجة للصورة الميتافيزيقية التي توضع فيها المشكلة الأساسية .

ونكون على جانب لا بأس به من البلادة أو من الإدعاء ، إذا قدرنا أن الاستعمار يجهل هذه الأوضاع النفسية ، كما نكون على جانب هام من العبث إذا قدرنا أن الاستعمار يعلم هذا ولا يستغله .

وعلينا إذن أن ندرك كيف يحدد الاستعمار نفسه ، وموقفه أمام هاتين الحالتين ، ولقد أشرنا إلى موقفه إشارة عابرة ، حينما تحدثنا عن « المنديل الأحمر » الذي يترك الثور يتزايد غضبه ، حتى يفقد أنفاسه .

ولا شك فإن الاستعمار سيبذل جهده بكل تأكيد ، حتى يزداد من يكره الشيطان حقداً أو غضباً عليه ، ويزداد من يدين له بالنعم ، شكراً وحمداً .

وهذان الموقفان ، وإن كانا يختلفان من الناحية الأخلاقية ، يحققان النتيجة نفسها من الناحية العملية ، إذ هما يكوّنان حجر الزاوية في الخطة التي يرسمها الاستعمار لتنويم الوعي الإسلامي ، كيما يحول بينه وبين المشاكل القائمة .

فكلما شعر أن المشكلة الأساسية على وشك إلفات النظر إليها ، وإثارة الاهتمام بها ، تراه يزيد في التلويح بالمنديل الأحمر كما يزيد حفنات جديدة من النقود في ضمائر بعض الولاة المسلمين ذوي الضمائر ، المعدة على صندوق الصدقات ، وإذا بالمشكلة تعود إلى الغيوم .

فهذا فعل إلفات ، أو تحويل للموضوع ، ولا شك ، فإن كل بلد إسلامي يعرف على الأقل فصلاً من فصوله ، في نضاله ضد الاستعمار في السنوات الأخيرة .

وعلى سبيل المثال ، فإن الجزائري المعاصر لنا يذكر ، دون لبس أو شك كيف ولد سنة ١٩٣٦ المؤتمر الجزائري المشهور ، وكيف قتل في مهده ، وقد كان يمثل أهم مرحلة في تطور الشعب الجزائري السياسي ، بعد الحرب العالمية الأولى ،

كما كان يمثل بالنسبة للاستعمار أخطر الظروف التي عرفها في سياسته الجزائرية منـــذ ١٨٣٠ •

ولقد كان المؤتمر يحمل في روحه ، وفي النزعات التي ورثها عن الكفــاح الطويل الذي سبقه ، ما يؤهله ليكون في توجيه الحياة السياسية في الجزائر ، العنصر الفعال •• فقد قام ليكون في البلاد جهازاً سياسياً فوق الاحزاب ، يجعل الإدارة الاستعمارية وجهــاً لوجه ، مع الشعب الجزائري ذاته لا مع القــادة السياسيين •

فشعر الاستعمار أنه سيفقد وسائل التأثير والرقابة على سياسة البلد ، إذا ما خرجت من تصرف القادة بوضع هذا التصرف تحت نظر الشعب •

وإذا به يلوح بالمنديل الأحمر : فيغتال مفتي الجزائر حتى تكون جثته مبرراً للادارة الاستعمارية في إصدار الأوامر الصارمة ، ثم يلقي من ناحية أخرى بحفنات نقود في ضمائر بعض القادة ••• فيذهب المؤتمر بعد ذلك قتيلاً ••• ويصبح هباء ، خلال شهر واحد ، ما كافح من أجله الشعب الجزائري ربع قرن •

ولا شك أن التاريخ السياسي الحديث ، في أي بلد مسلم ، سجل فصلاً كهذا ، أعني أن الاستعمار يستغل نفس الأوضاع النفسية ، فهو يثير الغضب الأعمى عند الجماهير ، ويغذي شهوات القادة •

ومن الواضح فان هذا الجهاز سوف يظل خفياً لا يرى لأنه مقيم في أعماق أنفسنا ، كامن في استعدادنا لتقبل الإيحاءات التي من شأنها أن توجه سلوكنا ، فهناك مختبرات متخصصة في الكيمياء السياسية تخصصاً عميقــاً ، تعــد تلك الإيحاءات وتشحنها في شعورنا بالطــرق المناسبة ، ويكفي أن يضــع أحــد الأخصائيين أصبعه على زر خفي ، فتنطلق في شعورنا شحنة من الغضب والثورة ، أو من الإجلال والخشوع ، حسب ماتكون الشحنة مجرد عوامل نفسية ، تسلط على إحساس الجماهير أو نقود تصب في ضمائر بعض القادة •

وهنا تواجهنا مشكلتان ، ولكن مشكلة العوامل النفسية والايحاءات هي الأهم في نظرنا لأن تلك العوامل تحرك الملايين من الجماهير الطيبة ، بينما لا تحرك النقود سوى أفراد ، أعدت ضمائرهم على صورة صندوق الصدقات الـذي توضع فيه النقود .. كتلك الضمائر التي باعت المؤتمر الجزائري سنة ١٩٣٦... إلى الاستعمار .

فالمشكلة الأولى هي التي تهمنا لأنها تتصل بسلوك كل مسلم بصفة عامة ، وينبغي لنا ألا نلاحظ في هذا السلوك ، النتائج ، التي تقع مباشرة تحت حسنة لأنها ظاهرة في أثرها ، ــ فلا حاجة بنا إلى تأملها ــ بل الأسباب التي تسبب تلك النتائج ، والتي لا نراها لأنها أسباب خفية .

وهذا يعني أنه ينبغي ألا نعتبر الأشياء من الوجهة السياسية ، في سطحيتها، ولكن من الوجهة النفسية في عمقها .

فكثيراً ما يرى الفرد منا في قضية ما أن أسبابها متعددة ، وفي الغالب يكون ذلك التعدد في صورتها الخارجية فقط بمعنى أنها تظهر متعددة لأن تأثيرها على شعوره يتكرر في ظروف مختلفة باختلاف الزمن والمكان . فكلما يأتي منها مظهر جديد لتغير الظروف يظن أن السبب جديد في ماهيته .

وإذا كنا نقع هكذا في الخطأ بالنسبة لسلوك الفرد فمن الواضح أننا سنقع في الخطأ نفسه وللسبب ذاته ، بالنسبة للسلوك العام ، أو بتعبير آخر بالنسبة للسياسة في البلاد المستعمرة ، حيث إن الضعف الموجود في موقف الفـرد إزاء مشكلاته الشخصية سيوجد مجموعاً في ضعف عام متفشٍ في السياسة .

وعليه فإن بحث القضية في مستوى الفرد سيؤدي الى نتائج صحيحة في مستوى المجتمع إذا تصرفنا في تطبيقها كما يجب .

إن مشكلة الفرد المسلم بالنسبة للصراع الفكري هي أن سلوكه يصبح في حكم الفعل الشرطي ــ كما يحدده بافلوف ــ أي أنه لا يستطيع توجيـه فكره

وعمله باختياره طبقاً لمقاييس يحددها عقله ويعيها ضميره ، والخطة التي يطبقها الاستعمار تهدف الى هذه النتيجة النفسية عن طريق بافلوف •

وهذا السلوك الشرطي ينتج عند المسلم ــ بصفة طبيعية ــ من جراء الدوافع المتعلقة بغريزة الدفاع عن النفس ، وهي الدوافع التي انطلقت منذ الهجوم الاستعماري ، في غرة القرن الماضي •

كما ينتج أيضاً ــ وبصفة صناعية ــ من الإيحاءات التي تسلطها على مشاعره ، ومن وقت إلى آخر ، المختبرات المختصة ، كي ترفع توتر طاقات الدفاع عن النفس فوق الدرجة اللائقة • حتى يكون الفرد في حالة توتر شاذة •

ويمكن أن نقول ، دون تردد ، إن هذه الدوافع المنطلقة في حالة غير عادية ، وهذه الإيحاءات السلبية هي التي جعلت من المسلم ، فيما يظهر ، منبوذ القرن العشرين ، أي الشخص الذي يعيش على هامش المجتمع العالمي المعاصر •

ومما يلاحظ بشأنه فعلاً حينما نراقب سلوكه في المناطق الخارجية عن دار الإسلام القائمة على حدوده ، أي في مناطق الاتصال بعالم الآخرين ، فإننا نجده يسلك غالباً ، إن لم نقل دائماً ، مسلك المتهم أو المتهم بالنسبة للآخرين ، أي مسلك الفرد الذي يعيش كمنبوذ في المجتمع العالمي في القرن العشرين •

وهذه الحالة تلقي ثقلاً على مصيره ، في الوقت الذي يتقرر فيه مصير العالم بإجماع الإنسانية •

وإنه لمن لغو الحديث أن نقول إن الاستعمار يعلم هذا الوضع الشاذ في سلوكنا ويرى فيه أحسن مشجع لعزلنا عن المجتمع العام ، كما يعزل مكافح الصراع الفكري عن المجتمع الخاص ، إذ يعزلنا فعلاً عن عالم تنتهمه وينتهمنا ويملأ أبصارنا فيه بالأشباح التي يزيد تأثيرها في توترنا فوق درجة مجرد الدفاع عن النفس ، بينما يزيد المنديل الأحمر في فزعنا من ابليس •

وهكذا تستطيع المختبرات المختصة أن تصرف كل إمكانياتنا الفكرية

والمادية إلى معارك وهمية ، فنسمع فيها قعقعة السلاح ، ودوي الحرب ، ولكنا تتصارع فيها مع أشباح تحركها أمام أبصارنا المسحورة يد خفية ماهرة .

فحينما تصعد صرخة الانتصار في الفضاء ، فإن ذلك يعني أن شبحاً قد اختفى عن المسرح حتى يتيح لنا الشعور بالانتصار عليه .

والتاريخ الإسلامي الحديث لا يخلو من هذه المعارك الوهمية ، التي ننتصر فيها على الأشباح ، كتلك المعركة التي خاضها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ضد أرنست رينان وجبرايل هنوتو .

ويتبين من خلال بعض المقارنات الحديثة ، أن عهد المعارك الوهمية ضد الأشباح لم ينقض في العالم الإسلامي ، كما رأينا ذلك سنة ١٩٤٨ حينما خسرنا معركة وهمية ضد شبح اسمه إسرائيل ، كان يحركه أمام أبصارنا « المسحورة » ذلك « الحاوي » الماهر ، المستر تشرشل وتلميذه الشاطر ترومان .

أو بكلمة واحدة ، إننا لا زلنا مستعدين لنصرف من الوقت والمال والفكر دون جدوى .

ويجب أن نضيف إلى هذا أنه كلما وضعنا أنفسنا في فصل كهذا فإن الاستعمار سوف يكلف الاخصائيين في لعبة الظل ليصور لنا معركة خيالية تصرف المسؤولين في البلاد الإسلامية عن المشاكل الحقيقية .

وهذا هو ما نشعر به ، أولاً ، ازاء بعض المشاريع ذات الشأن ، حينما يحاول من يقوم بها ، أن يجند الأفكار والأقلام والأموال للدفاع عن الإسلام من هجمات المستشرقين .

فإذا بالاستعمار يبدي ارتياحه لمثل هذه المشاريع حينما يأتيه نبؤها ، إن لم نقل أنه أوحى ، من بعيد ، بفكرتها لأنها سوف تصرف الأموال والأقلام والأفكار عن الأشياء الجدية .

كما نشعر أيضاً أنه سوف يبدي قلقه ، لو أن أحداً انفلت من تأثير سحره ، وحاول أن يقول إن المشكلة ـ ليست في الدفاع عن الإسلام الذي يجد في جوهره حصانته ، من عطاء الله إليه ـ ولكن في تعليم المسلمين كيفية الدفاع عن أنفسهم بما في الإسلام من وسائل الدفاع •

فالاستعمار يغضب حينما يتوقع بأن المشكلة سوف توضع هكذا ، إذ بذلك سوف يفلت من يده زمام الأمور ، وأن الناس سوف ينتهون من الحديث عن عورته ، هل هو امرأة أم رجل ، وأن القضية سوف تخرج من عالم الميتافيزيقا والظلام لتدخل عالم الجد ، وتصبح قضية مطروحة لعلم النفس والاجتماع ، لتدرس في ضوئها الشروط التي تشجع الاستعمار أو تنمي القابلية للاستعمار ، وها نحن في صميم موضوع هذا الفصل •

إنه لمن ترف القول إذا قلنا إن كل ما يحدث اضطراباً في خطة الاستعمار المطبقة أو يحدث أثراً يناقض السلوك الشرطي الذي أصبحت أفكارنا وأفعالنا خاضعة له ، بمقتضى تلك الخطة ، قد يصبح موضع كل اهتمام من طرف الاستعمار •

وإنني لا أشك في أن ما كتبته في محاولة سابقة عن التجربة التي تتعلق بالعروة الوثقى لكي أطلع بعض الطلبة المتصلين بي على أسلوب الصراع الفكري في البلاد المستعمرة قد بلغ الدوائر المختصة ، إذ تناولته الأيدي منذ سنتين داخل الجمهورية العربية المتحدة وخارجها ، حتى إن بعض الطلبة وزعوا منه عدداً من النسخ طبعوها على حسابهم بالآلة الكاتبة الكبيرة[1] •

ويكون من العبث ومن جهل أسلوب الصراع الفكري إن لم نقدر هذا •

ولكن هذا التقدير يحتمل نتائج منطقية لا سبيل لأن نقصيها عن الاعتبار •

---

(١) نشير الى التوزيع الذي قام به بعض أبنائي الطلبة بليبيا •

وهي أن الدوائر المختصة لا يمكنها أن تقف عند حد الاطلاع عندما يبلغها ماكتب في الموضوع منذ سنتين •

وإذا قدرنا هـذا كما يجب ، فمـا النتيجة العلميـة بالنسبة الى خطـة الاستعمار في مواصلة الصراع ؟

إن أقل ما يمكن أن نتصوره هو أن تلك الدوائر المختصة لا بد أن تتقبل الملاحظات المسجلة في المخطوط الذي وزعت منه بعض النسخ في البلاد العربية ، كنقد قد يفيدها في تعديل الخطة ، إذا ما اقتضت الظروف ذلك ، وإننا نكون قد اتهمنا الاستعمار بما ليس فيه ، إذا قدرنا ، حينما يشعر بضعف في خطتـه ، أو بحاجة الى تعديلها، انه لا يسارع الى تدارك الضعف والى تصحيح الخطأفي خطته •

والحق انه ليس للقيادة الاستعمارية في بنائها الفكري ، تلك الحواجز التي نراها تكف عملية التكيف عند قيادتنا •

وإذن فماذا يستنتج من هذا كله ؟

ان الدوائر المختصة التي ركبت الجهاز الذي وصفناه في الفصل السابق ، وأطلقنا عليه مرآة الكف ومرآة الحرمان ، لم تشعر بالحاجـة الى تغييره تغييراً كلياً ، وانما رأت أن تعديله قد يكون مجدياً لمسايرة ظروف جديدة •

وربما أن هؤلاء الأخصائيين استفادوا من ملاحظاتي أكثر مما استفاد منها الطلبة الذين أردت اطلاعهم عليها ، وليس في ذلك أية غرابة •

فكان اذن على أولئك الأخصائيين تعديل الجهاز ، أو بالضبط تحسينه من الناحية الفنية ومن ناحية الوسائل ، بأن تكون الخطة معززة ، هذه المرة ، بالوسائل الكافية وبالكفاءات اللازمة ، وبالآلات البشرية (Robots) التي تنجز الأعمال حينما يوضع في ضميرها بعض نقود كما توضع في صندوق الصدقات •

فالتركيب الجديد يتجاوب أولاً مع الضرورة التي تنتج بصفة عامة ، من أن

كل فخ عرف مكانه يصبح دون جدوى أو بالتعبير العسكري ، من أن كل جهاز يقع تصميمه في يد العدو لا يبقى صالحاً للاستعمال ضده .

فكان من الضروري اذن ضرورة فنية ، تعديل مرآة الكف التي وصفناها في الفصل الأخير لأن هذا الوصف ذاته كشف سره منذ سنتين .

ولا شك أن هناك أشياء أخرى تؤيد هذه الضرورة ، أشياء ناتجة عن الظروف الجديدة الخاصة بالبلاد الإسلامية والعربية ، وعن الطور الجديد الذي يمر به الصراع الفكري في العالم ، بصفة عامة ، وخاصة في البلاد التي لا زالت في المعركة التحررية .

فيجب علينا اذن أن نقارن الجهاز الجديد بالقديم من حيث جوانب الضعف فيه كي ندرك التحسين الذي أتى به الجديد .

لقد ذكرنا كيف كان التركيب الأول يعرض اسم مؤلف لانعكاسات المرآة « كفرنسي اعتنق الإسلام » يعرضه لها بصفة ثنائية ، بما أنه كان يقحمه بين اسمين آخرين تلقي عليه تلك الانعكاسات ، أي أن الاسم المقصود لم يكن في هذا التركيب ينتج مباشرة الإيحاءات السلبية ، وانما كان يتلقاها من الخارج ويعكسها فقط .

وكان هذا جانب ضعف في الجهاز ، بل إن ما يزيد في هذا الضعف هو أن أجزاء التركيب كلها ظاهرة مرئية حيث إنها كانت مكتوبة على صفحة من صفحات « العروة الوثقى » .

وبعبارة أخرى ، أنه كان تركيباً فجاً ، بدائيا .

فكان اذن من الحكمة أن يفكر يوماً ما المهتمون بالصراع الفكري في تركيب جهاز جديد تكون أجزاؤه غير ظاهرة ، وغير ظاهرة على وجه الخصوص بالنسبة الى الشخص المقصود ، حتى تؤدي المرآة مفعولها دون أن يشعر بذلك .

والتحسين المنشود الذي أتى به الجهاز الجديد ، هو بالضبط ، أنه لا يراه إلا من قدّر له ، عن قصد أن يراه ، أو بتعبير مصطلحنا : لا يراه إلا من هو معد من أجله ، ليعكس إلى نظره وشعوره على الخصوص تلك الإيحاءات التي من شأنها أن تجعله في حالة « السلوك المشروط » إزاء الأفكار المقصودة من وراء هذا كله .

فميزة التركيب الجديد هو أنه يمكنه أن يلفت النظر الى كاتب معين ، دون أن يشعر هذا بأنه أصبح يشع إيحاءات ويعكس ردود أفعال شرطية موجهة ضد أفكاره ذاتها .

فهذه المرة لا يمكن لهذا المؤلف أن يتفطن للشبك الذي نصب لأفكاره ، لأنه نصّب وراء ظهره ، وبعيداً عن نظره ، فهو عبارة عما يسمى « لعب صور الظل » أي تلك الصور التي يمكن للاعب ماهر أن يصورها من ظل يديه وأصابعه، كقصة يراها الناظر على الحائط ، ويمكن أن يزيد اللاعب الماهر في اعجاب ذلك الناظر إذا كان عنده الصوت المناسب مثل لاعب « جراجوز » ، ليعقب على الصور التي تلقيها يداه وأصابعه على الحائط بما يناسب من التعليقات .

وكل مهارة هذا المخرج تكون في أن يستمر لعبه حتى النهاية دون أن يشعر به الكاتب الذي أعد من أجل أفكاره هذا الجهاز ، ولسنا نرى مكاناً لوصف تفصيلي لهذا الجهاز ، إذ أننا لا نرى مسوغاً لأن نقدم في هذا العرض النظري ، لقصة من الصراع الفكري ، كل تفاصيلها الواقعية ، فحسبنا أن نورد مجمل القصة بالصورة التي تتيح لنا أن نعطي فكرة عن تركيب الجهاز الجديد وعن كيفية تشغيله في ظروف معينة .

ان الاخصائيين المهتمين بالصراع الفكري قرروا أن لا يكون عملهم قائماً ، في هذه المرة على « دائرة أفكار » معينة ، كما كان شأنهم في المرة الأولى التي وصفناها .

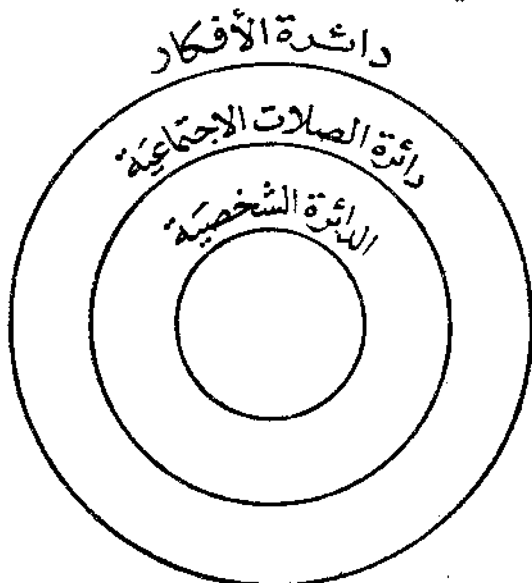
ان مبدأ الجهاز الجديد من نوع آخر : إن كل كاتب له ــ قبل دائرة أفكاره ــ دائرة تشمل حياته الشخصية ، في عقر بيته ، ودائرة تضم علاقاته الاجتماعية ، خارج بيته ، مهما يكن عددها •

وهذه الدوائر الثلاث ليست منفصلة الواحدة عن الأخرى فقد بينا في الفصل السابق كيف أن دوافع الحرمان التي تسلط على شخص كاتب ، بأنها توجه إلى دائرته الشخصية ، بصفته « كاتب فرنسي » مثلاً ، تكون موجهة في الواقع إلى دائرة أفكاره •

ولكننا بينا في نفس الوقت ، ضعف هذا التركيب ، حيث أنه لا يشمل الدائرة الشخصية لتنتج مباشرة دوافع الحرمان ، وإنما هي تتلقاها من الخارج ، وتعكسها فحسب ، على دائرة الأفكار التي تكون بهذا كأنما ما تتضمنه من أفكار قد وضع في إضاءة غير مباشرة ، أي تحت تأثير دوافع واردة من الخارج •

فالتحسين الذي أدخل على هذا التركيب هو أن يضعها في إضاءة مباشرة ، أي أن يضع دائرة أفكار مؤلف مقصود تحت تأثير دائرته الشخصية مباشرة •

والتصميم النظري لهذا الجهاز قد يكون على هذه الصورة •



فيمكننا الآن أن نفسر عمل الجهاز على ضوء هذه الصورة النظرية •

اننا نرى أولاً ، أن كل ما يصدر من إشعاع من الدائرة الشخصية الخاصة بفرد معين ، يصب حتماً ، بخيره أو بشره في دائرة أفكاره ، لأنه ينعكس عليها بمقتضى تداخل الدائرتين : ففي أي تعفن أخلاقي يحدث داخل الدائرة الشخصية يصل اشعاعه فوراً ــ كتعفن ــ الى دائرة الأفكار •

وبنفس الآلية ، فإن كل ما يحدث من خير أو شر ، على الدائرة الاجتماعية يحدث أثراً إلى الخارج ، تجاه دائرة الافكار وينعكس عليها أيضاً •

ولكن يجب أن نلاحظ أن نصيب الإشعاع الذي يرد من الدائرة الاجتماعية تجاه الداخل ، ينعكس على الدائرة الشخصية ثم يعود منها ، كإشعاع منعكس ، إلى دائرة الأفكار ليلقي عليها ما يحمل وما حمل من الدوافع الحرمانية • حتى إن دائرة الأفكار تتلقى في النهاية ، كل ما تشعه الدائرة الاجتماعية في الاتجاهين•

وبالتالي فان كل ما يحدث ، بطريقة طبيعية أو صناعية تعفناً في الدائرة الشخصية الخاصة بفرد أو في دائرته الاجتماعية فان تأثيره يصيب بأكمله دائرة أفكاره •

وإنما يجب أن نلاحظ ، كي نكون أكثر دقة وتحرياً ، أن لدائرة الأفكار ذاتها • إشعاعها الخاص : تشع هي نفسها بايحاءاتها على الدائرة الشخصية التي تعكس بعض هذه الإيحاءات على الدائرة الاجتماعية التابعة لها •

إن للأفكار سلطة خاصة تفرض رقابة على الإيحاءات التي ترد الى دائرتها من الدائرة الشخصية ومن الدائرة الاجتماعية ، وتصحح معناها إذا وقع فيه انحراف ، مقصود أو غير مقصود •

فعندما يقول لنا أحد إن غاندي ، مثلاً كان ينشر أفكاره المعروفة « باللاعنف » عن اتفاق خاص بينه وبين الاستعمار البريطاني ، أو لأنه تقاضى

رشوة عن ذلك ، فان دائرة الأفكار نفسها التي توجه إليها هذه الإيحاءات السخيفة ، تضرب بها عرض الحائط وتلغيها بمجرد ما لها من القيمة الذاتية ، أي بقطع النظر عن الدائرة الشخصية الخاصة بغاندي ، وعن دائرته الاجتماعية ، حتى إنه يمكننا إصدار الحكم المبطل لتلك الإيحاءات بمجرد الالتفات الى دائرة الأفكار فقط باعتبار قيمتها الأخلاقية والعقلية من ناحية ، وباعتبار مكانها في التخطيط السياسي العالمي ، من ناحية أخرى .

وأحياناً نرى أن الأفكار تدافع مباشرة عن دائرتها ضد أفكار أخرى يراد زجها فيها ، عن قصد أو بحكم الصدفة ، إن التاريخ الإسلامي نفسه يعطينا صورة من هذا القبيل : اننا نذكر كمسلمين المحاولة أو المحاولات التي قام بها بعض الأشرار الآثمين لانتحال الآيات تزييفاً للوحي .

وقصة « الغرانيق » كانت إحدى تلك المحاولات ، التي كانت تصدر من مركز الإشعاع المزيف الذي كان يشرف عليه ، لا شك السبائيون والمنافقون ، بقصد تشويه القرآن الكريم ، غير أن هذه المحاولات الأثيمة لم تحظ بأي نجاح لأن دائرة الأفكار القرآنية تلغي بنفسها تلقائياً كل فكرة دخيلة عليها ، فتطردها وتقصيها عن دائرتها .

حتى إنه ليمكننا القول بأن السبائيين قد نجحوا ، إلى حد ما ، في مساعيهم الأثيمة ضد الحكم الإسلامي ، إذ أنهم تمكنوا من تغيير مجراه منذ واقعة صفين ولكنهم مع ذلك لم يتمكنوا من تغيير ذرة من دستوره المنزل ، لأن القرآن يدفع عن نفسه الأباطيل ، ويطرد كل دخيل عليه . فما كان لأحد من السبائيين أو غيرهم ، أن يضيف إليه شيئاً ، مثل قصة « الغرانيق » .

ذلك لأن الأفكار بصفة عامة ، لها من قوة الدفاع عن نفسها ما يخولها سلطة تفرض بها رقابة على كل ما يكون من شأنه أن يشوه معناها أو يفقدها وحدتها : إنها تطرده فورا من دائرتها .

فكذلك الأفكار القرآنية قد استخدمت خلال القرون قوتها ضد كل محاولة تحريف أو تزييف وفرضت رقابتها على كل دخيل عليها مثل قصة « الغرانيق » تطرده من دائرتها ، مقصية ، بذلك شحنة الايحاءات السلبية التي يحملها الدخيل إليها •• حتى لا يكون لها ، أي أثر سيء على الضمير الاسلامي في النهاية •

وهكذا كان مصير جميع المحاولات التي أريد بها تشويه القرآن وتحريفه عبر التاريخ ، لأن الأفكار القرآنية ، بصفة خاصة والأفكار من حيث هي افكار بصفة عامة وفي نطاق شروط اجتماعية معينة تقوم بدور المصفي بالنسبة للأفكار الدخيلة ، المشتبه فيها ، التي تحاول يد خفية أن تزجها في دائرتها •

غير أن لهذه الرقابة ، ولهذه السلطة ، التي تحتمي بها الأفكار من الغش والدس ، شرطاً نفسياً ـــ اجتماعيا يمكننا فهمه على ضوء قصة « الغرانيق » : لماذا لم يتح لهذا الدخيل أن يندس في دائرة الافكار القرآنية وبالتالي أن يدس الريب والحرمان في الضمير الإسلامي ؟

والجواب على ذلك أن هذا الضمير نفسه كانت له حصانته الخاصة ضد الحرمان فقد كان محصناً أولا بنظافته الأخلاقية ، التي لم تكن تتيح لأي جرثومة أن تصل إليه من الخارج ، أي أنه لم يكن فيه أي استعداد للتعفن •

ثم إنه كان محصنا ثانياً بميزة فكرية ، وهي التي تكون بالضبط حجر الزاوية في الصراع الفكري ، فهذه الميزة هي التي تجعلنا ندرك تلقائياً قيمة الأفكار كأفكار ، وتجعلنا بالتالي ندرك أهمية الصراع الفكري وخطورته ، وعلى وجه الخصوص ، فان هذه الميزة تكون المصفى الذي يمسك الأفكار المزيفة ، فلا يتركها تندس في دائرة الأفكار المستقيمة لتزيف وحدتها ، وتشوه صورتها •

وبهذا تنتهي إلى أن الشيء الذي يتكفل حصانة دائرة أفكار معينة ، هو في الحقيقة ، قيمة أخلاقية تشترط النظافة وتفرضها في كل الظروف ، وقيمة فكرية تجعلنا نميز بين الغث والسمين •

فإذا حدث في مجتمع ما أن اختل هذان الشرطان الأساسيان فان الأفكار تفقد كل حصانة ، كما يفقد من يدخل الصراع تحت رايتها ضمن ضد الإيحاءات السلبية التي تنتجها مختبرات السياسة العلمية لمواجهة الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، وفي هذه الحالة تفقد الأفكار كل فعاليتها في مجتمع لم تبق لها فيه سلطة الرقابة ، والتصفية والتصحيح أو لم تكتسب فيه بعد هذه الميزات .

وهكذا تصبح دائرتها معرضة لكل الإيحاءات السلبية الموجهة ضدها دون أن يمكنها أن ترد من ناحيتها على هذا التحدي .

ويكون المكافح الذي دخل المعركة تحت راية تلك الأفكار ، معرضاً لأن يخوض المعركة وحده ، دون أن تسانده عن يمينه أو شماله أو من خلفه أو من الأمام أية قوة تعزز كفاحه كما بينا ذلك في الفصول السابقة .

والواقع أن مجتمعنا أصبح يعاني في قيادته أزمة أخلاقية وفكرية ، تجعله بصفة عامة لا يحقق للأفكار شروط حصانتها وفعاليتها فيه ، حتى إنها تكون معرضة للدس إما لضعف أخلاقي يحيط بها وإما لضعف فكري يخذلها .

غير أننا إذا ما فحصنا هذه الحالة على ضوء تجربة طويلة فسوف نجد أن الضعف الفكري هو أقوى العوامل تأييداً ومساعدة لمساعي الاستعمار في جبهة الصراع الفكري .

فالتجربة تكشف لنا أن مأساة الأفكار عندنا تدور فعلاً على هذا المحور .

ويمكنني أن أذكر ، على سبيل المثال ، وتأييداً لهذا الرأي ، قصة تتصل موقف جمعية الطلبة الجزائريين المسلمين بالجزائر . عندما صدر هناك سنة ١٩٤٨ ، كتاب « شروط النهضة ومشكلات الحضارة » .

إن هذه الجمعية قامت برد فعل غريب ، فنشرت في الصحافة بلاغاً يدين الكتاب المذكور على أنه مضر بقضية الشعب .

ولا شك أن هذا « الإيحاء » قد أتى عن طريق طالبين او ثلاثة يستخدمهم الاستعمار لحسابه في مثل هذه المهمات •

ولكن هل « تعفن » طالبين أو ثلاثة هو أساس المشكلة ؟ أم الضعف الفكري الغريب الذي أبداه مائتان أو ثلاثمائة طالب حينما تقبلوا دون أية رقابة ، الإيحاء الموجه ضد الكتاب ؟

وكذلك الأمر سنة ١٩٥٤ ، حينما صدر كتاب « وجهة العالم الإسلامي » لنفس المؤلف فان جمعية العلماء الجزائريين كأنما قد أرادت أن تصدر حكماً بإدانته ، بطريق غير مباشر ، فسحبت من مؤلفه منحة شهرية كانت تزعم أنها تقدمها له لتأييد الانتاج الفكري ، ومن الواضح أن رد فعل كهذا كان مقرراً بمقتضى المبدأ الثاني الذي قدمنا ذكره •• أي المبدأ الذي يقضي في منهج الاستعمار • بفصل الكتاب عن القضية التي يكافح من أجلها فصلاً عملياً بوسائل مادية ، أو معنويا بوسائل نفسية • وتحويل المعركة التي بدأت بينه وبين الاستعمار الى معركة بينه وبين إخوانه •

ولكن حينما يحدث هذا فهل أساس المشكلة « تعفن » الشخص من بين المشرفين على جمعية العلماء • الذي أتى عن طريقه هذا الإيحاء من طرف الاستعمار ليلقيه في آذان أولئك المشرفين ؟ أم أساسها الضعف الفكري الفظيع الذي أبداه هؤلاء المشرفون الذين عبروا في هذه المناسبة ، عن عدم كفاءتهم ، وأخص منهم بالذكر فضيلة الشيخ العربي التبسي لأنني أعلم أنه كان على جانب خلقي عظيم ، بينما نراه ، من الناحية الفكرية يبدي ضعفاً كبيراً فلم يقتنع بتقبل الإيحاء المذكور بل أصبح يدافع عنه بكل إخلاص دون أن يشعر بأن موقفه ذاته كان مقداراً في خطة الاستعمار ، كأهم العوامل التي من شأنها أن تبعد كاتباً معيناً عن القضية•• فهو قد وقف هذا الموقف لأنه لم يكن يعلم ، رحمه الله ، أن الصراع الفكري ، هو فوق كل شيء • الصراع الذي يصنع سلاحه مما في طيات النفس وخفايا الروح •

وبالتالي فان الجانب الفكري هو الأساسي في المشكلة التي نحن بصددها : إن الأفكار لا تتمتع في المجتمع الإسلامي بقيمة ذاتية تجعلنا ننظر إليها كأسمى المقومات الاجتماعية ، كقوة أساسية تنظم وتوجه قوى التاريخ كلها ، وتعصمها بذلك من محاولات الإحباط مهما كان نوعها •

وهذه الثغرة تعود في تكوينها ، إلى شيء من التخلف في تطورنا الاجتماعي عرفناه في دراسة أخرى[1] « بالطور لما قبل الاجتماعي » أي الطور الذي لم يكتشف فيه الطفل بعد عالم الافكار ، وحينما يكون المجتمع في هذا العمر النفسي فان الأفكار لا تجد فيه مسوغاً ولا هو مسؤول عن ذلك ، كما لا يسأل الطفل عن شيء ليس من سنه •

وبسبب هذه الثغرة ، فان الصراع الفكري لا زال يغشاه الظلام الذي يغشى الحقائق التي لم تكتسبها ولم تهضمها تجربتنا ، لأنها لم تصل بعد ، الى إدراكنا•

وفي مثل هـذه الظروف ، فان دائرة الأفكار تكون معرضة الى تحـدي الاستعمار ومؤامراته ، دون أن تستطيع الرد اللازم عليه •

فهي معرضة ، بوجه خاص ، الى الإشعاع الذي يصدر إليهـا من دائرة صاحبها الشخصية ، ومن دائرته الاجتماعية ، دون أن يحميها من هذا الإشعاع شيء من الرقابة والتصفية والتصحيح ••

فالجهاز الذي يتركب من الوجهة النظرية من ثلاث دوائر متداخلة كما بينا ، يصبح من ناحيـة التأثير ، كأنه مركب من دائرتين فقط : الـدائرة الشخصية والدائرة الاجتماعية •

أما الأفكار التي يصل إليها التحدي دون أن يمكنها الرد عليه فانها فقدت تأثيرها بسبب الضعف المتفشي في الجهاز الفكري عندنا اليوم ، فكأنما دائرتها أصبحت ملغاة لا تلعب دوراً في الصراع الفكري في البلاد الاسلامية •

---

(١) راجع فكرة كومنولث اسلامي •

هكذا يمكننا أن نتصور من الوجهة الفنية ، التعديل والتحسين الذي طبق في انتاج عوامل الحرمان ودوافع الكف . كما نحاول وصف ذلك في هذا الفصل. فالمنهج المطبق في الصورة الأولى التي تحدثنا عنها . كان يقتضي تسليط اشعاع الحرمان على دائرة الأفكار من تلقــاء دائرتي افكار لمؤلفين آخــرين معروفين ذكرناهما في الفصل السابق . فكان هذا الإشعاع خارجياً . يأتي من الخــارج إلى دائرة الأفكار التي نريد تسليطه عليها .

أما في الصورة الجديدة التي نخصص لها هذا الفصل ، فإن الاشعاع يسلط على دائرة الافكار من الداخل ، حيث إنه يأتيها من دائرة صاحبها الشخصية ومن دائرته الاجتماعية .

وهذا يعني طبعاً أن هاتين الدائرتين تنتجان الاشعاع ، من تلقاء نفسهما بحكم طبيعتهما ، أو أنهما أعدتا لانتاجه ، بطريقة صناعية معينة .

وبالتالي فإنتاج هــذا الاشعاع النفسي هو القضية الأساسية والمشكلة الرئيسية لما ينتظر من التعديل المقصود والتحسين المنشود .

وهذه النتيجة المنتظرة تكون ، بالضرورة ، مطابقة لطبيعة الدائرةالشخصية والدائرة الاجتماعية اللتين اعدتا لإنتاج الإيحاءات المقصودة ، ومطابقة أيضــاً للمنهج المطبق من أجل ذلك .

فعلينا إذاً أن نحدد هاتين الدائرتين من وجهة تركيبهما ومحتواهما :

أ ـــ أما الدائرة الشخصية : فانهــا تتضمن بحكم الضرورة حيــاة الفرد الخاصة ، مع أسرته أو بمفرده .

ب ـــ أما الدائرة الاجتماعية فإنها تتضمن ، بالضرورة ، الجوار ، والعلاقات المهنية ، والعلاقات الودية ، والعلاقات الناشئة عن الضرورة اليومية (مثل علاقتنا مع البائع الذي نشتري منه يومياً جريدتنا وخبزنا) والعلاقات التي تنشأ بمقتضى

حاجة التسلية ، إذا تعودنا الذهاب الى مقهى ، والعلاقات الأدبية ، إذا كان لنا صلات ببعض الطلبة .

هذه هي العناصر الأساسية للدائرتين ...

فكيف تنتج الدائرتان ، وهذا تركيبهما ، إشعاع الحرمان والكف ؟ وبعبارة أخرى كيف تعد لإنتاج هذا الحرمان صناعياً ، حتى يوجه إلى دائرة الأفكار التابعة لهما ؟

فسما تجب ملاحظته بالنسبة للدائرة الشخصية أن هناك ثلاث حالات ممكنة:

١ ــ حالة تنتج فيها بطبيعتها الدوافع الحرمانية ، بسبب تعفن في جوهرها .

٢ ــ وأخرى تنتج فيها تلك الدوافع ، بصفة طارئة أعني بسبب ما يحقن فيها من التعفن بطريقة صناعية أو ما يلصق بصورتها الظاهرة على الأقل .

٣ ــ لا تنتج مطلقاً اشعاعاً حرمانيا لأنها سليمة من طبيعتها من ناحية ، ولم تنجح ، من ناحية أخرى محاولات تعفينها صناعيا ... أو تشويه مظهرها .

أما بالنسبة للدائرة الاجتماعية فهناك حالتان ممكنتان :

١ ــ أنها لا تنتج انعكاسات الحرمان لأنّ ما تتضمنه من علاقات إنما هي علاقات سليمة في جوهرها .

٢ ــ أنها تشع انعكاسات الحرمان لأن علاقة ، على الأقل ، من العلاقات التي تشملها مشتبه بها .

وهذه الحالة الأخيرة تنقسم بدورها إلى حالتين جزئيتين :

ا ــ فإما أن العلاقة المشتبه بها قد دخلت في دائرة الفرد وهو يعلم الشبهات التي تحوم حولها .

ب ــ وإما أنها قد دخلت في دائرة الفرد وهو لا يعلم شيئاً عما بها من

الشبهات ، أو لا يعلم شيئاً لأن تلك الشبهات قد أضيفت إليها بطريقة صناعية •

وبالتالي ، فلو أننا تأملنا هذه الحالات بإمعان ، فسوف نجد أن الدائرة الشخصية كلها تحت تصرف صاحبها ، أما دائرته الاجتماعية فإنها لا تكون تحت تصرفه إلا بصفة جزئية ، أي في نطاق علمه فقط ، إذ لا يمكنه أن يفرض رقابة على كل علاقاته الاجتماعية في جواره ، وفي الدكان ، وفي المقهى ، وبين الطلبة إلخ••• حتى انه يكون من الممكن جداً اضافة علاقة مشتبه بها أو تعفين علاقة موجودة من قبل في تلك الدائرة دون أن يعلم صاحبها شيئاً عن ذلك وقد لا يعلم شيئاً عن ذلك حتى من يحمّل الشبهات ليحملها إلى تلك الدائرة •

فهذا التحليل يبين لنا كيف يمكن ، في حالة واقعية ، أن يتصرف من هو قائم بهذه العمليات لينتج أولاً ، انعكاسات الحرمان في الدائرتين ، الشخصية والاجتماعية ، ثم كيف يسلطها على دائرة الافكار •

والتحليل يبين لنا أيضاً ، أن الدائرة الشخصية هي ، في النهاية التي تتحكم في مشكلة من يقوم بعملية إنتاج انعكاسات وإيحاءات الكف والحرمان : فإن كانت متعفنة بطبيعتها أو إذا تمكن القائم بالعملية أن يدخل فيها التعفن بطريقة صناعية ، فإن القاء الشبهات على الدائرة الاجتماعية يكون أيسر ، لانها تجد في التعفن الداخلي ، طبيعياً كان أو صناعياً صورة مسبقة في الأذهان تحمل تفسيرات ومبررات منطقية مسبقة للشكوك والشبهات التي يراد القاؤها على الدائرة الاجتماعية •

فإذا كان أي خلل أخلاقي في الدائرة الشخصية فانه يكون أيسر من لعب الصبيان بالنسبة الى القائم بهذه العمليات أن يلقي ما يريد من الظلام على دائرة الأفكار في البلاد التي تفقد فيها الأفكار نورها الذاتي ، وذلك لأنه يستعين بالشبهات التي يمكنه في هذه الحالة خلقها بكل سهولة في الدائرة الاجتماعية •

ومن هنا ندرك أن اهتمام من يقوم بهـذه العمليات سوف يتعلق أولاً باستغلال التعفن الطبيعي الموجود في الدائرة الشخصية المطابقة للأفكار المقصودة أو بإنتاج التعفن فيها بطريقة صناعية بكل ما لديه من الوسائل إن لم يكن التعفن في طبيعتها •

فما هي تلك الوسائل ؟

فلنفرض انك تعيش بمفردك ، بعيداً عن زوجتك وأهلك ، ففي مثل هـذه الحالة يحاول القائم بالعمليات أن يدخل امرأة في حياتك ، ليس فحسب لإحداث خلل أخلاقي في دائرتك الشخصية ، ولكن لذلك أولاً ، ثم تمهيداً لعمليات أخرى على الدائرة الاجتماعية ، حسبما توحي به الظروف ، لأن دخول المرأة في الدائرة الشخصية يخلق مبررات ويمهد السبيل لإيحاءات كثيرة في الدائرة الاجتماعية •

وعليه فسوف ترى في يوم ما أن حسناء شقراء تطرق بابك وتحاول أن تدخل الى قلبك ولعلها تكون أجنبية ، ولكن من أرسلها إلى بابك يعلم أن لك شيئاً من الاهتمام بشؤون الدين مثلاً ، فرأى طبقاً لذلك أنه من إتقـان الخطة أن يلقن رسولته الساحرة بعض الآيات من الذكر الحكيم كي تبرهن بها على اهتمامها بالشؤون التي تهمك ، ولتجد أيسر الطرق الى قلبك •

ولكن للقلوب أقفالاً مفاتيحها ليست بيد البشر ، وعليه فإن المبعوثة الجميلة المهذبة قد تخيب في مهمتها مثلا •

فماذا يفعل اذاً القائم بالعمليات ؟ إنه ربما يرسل اليك هـذه المرة ساحرة سمراء ، وإن رأى أنها لم تنجح في مهمتها أكثر من الأولى ، فربما يرسل ثالثة من نوع آخر ، لا تتلو عليك من الذكر الحكيم ، ولكنها تقدم لك مثلاً هدية معينة من المصنوعات اللازمة لصاحبة البيت ، وبالمناسبة تسألك •

ـ هل السيدة صاحبة البيت هنا ؟

ربما أنك أيها القارىء الكريم لا تتصور بسهولة أن مثل هذا السؤال يتصل بالصراع الفكري فالأحسن إذاً أن تترك الموضوع •

وفي النهاية ، فإذا فشلت هذه المحاولات كلها لإدخال امـرأة في دائرتك الشخصية فان القائم بالعمليات سوف يشعر على الأقل بنصف الهزيمة ولكنه مع ذلك فإنه سوف لا يترك المعركة إذ يبقى له الأمل في دائرتك الاجتماعية •

فلنقدر أن دائرتك الاجتماعية لسبب ما ، لا تضم إلا عدداً قليلاً من الصلات يمكن تعدادها كما يلي :

(ا) صلة جوار تشمل زوجين في عنفوان الشباب تكون الزوجة (ف) شقراء مثلاً ، وجار فوقك لا تعرفه ولكنه ينصب فوق رأسك دوشة لا تعرف في البداية معناها ، وربما تكتشفه فجأة يوماً فلنسميه (ج) •

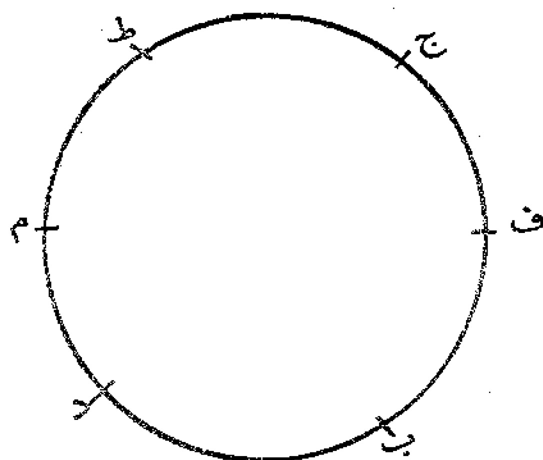
(ب) صلة أدبية مع عدد من الطلبة لأنهم يهتمون بالقضايا التي تهمك فلنشر اليهم بـ (ط) •

(ت) صلة ودية مـع سيدة (م) تكتب في الصحافة التي تكتب فيهـا أنت وخاضت مع زوجها المرحوم المعركة ضد الاستعمار •

(ث) علاقة حاجية في دكان تأخذ فيه كل أسبوع جريدة أجنبيـة فلنشر اليها بـ (د) •

(ج) ثم علاقة غير مستمرة بأسرة (ب) تزورها قليلاً مرة في الشهرين أو في الثلاثة أشهر مثلاً •

فاذا أردنا أن نرسم هذه العلاقات في تخطيط فستكون لدينا دائرة اجتماعية على هذه الصورة :



ولنفرض بعد هذا أنك تعرف جيداً العنصر (م) وإلى حد ما العنصر (ط) حتى لا يتطرق إلى ذهنك بسببهما شيء مــن الريب ولكنك ليس لديك عــن العناصر (جفبد) المعلومات الكافية بينما مراصد الاستعمار تعلم عنهم كل شيء كما تعلم جهلك أحوالهم .

فكيف يبدأ إذن عمل القائم بالعمليات التي نتحدث عنها ؟

فإنه بكل وضوح ، لا يمكنه التأثير مباشرة على العناصر (مط) ولكنه يمكنه بطريقة غير مباشرة أن يجعل من كليهما ، أو من أحدهما أو من بعض عنــاصر أحدهما مراكز إشعاع الحرمان ، دون أن يشعروا ، لأنه يمكنه في كل الظروف ، أن يستخدم عناصر أخرى خارجة عن الدائرة الاجتماعية وموجودة تحت تصرفه، ليحمل الشبهات إلى العناصر الموجودة فيها ، او إلى بعضها كالعنصر (م) مثلاً دون أن يشعر هذا ولا ان يشعر صاحب الدائرة ، كما أن الذباب يحمــل بعض الأمراض ، إلينا دون أن نشعر بذلك : فعندما تملي الحاجة أن يصبح العنصر (م) مشعاً دون أن يشعر ، فيكفي للقائم بالعمليات أن يخلق بينه وبين أحد العناصر المشبوه فيها صلة صورية ، فيقوم مثلاً العنصر المشبوه فيه بزيارة إلى المعهــد

الذي تدرس فيه (م) فيقدمه إليها أحد معارفها ، وفي الوقت الـــذي تصافحه بالضبط تلتقط صورة ، ومن هنا يبتدىء تصرف بسيط ليجعل من (م) مركز اشعاع يشع على دائرتك الاجتماعية الشبهات ، دون أن تشعر هي أو تشعر أنت، غير أن على فرض أن قصة الصورة الملتقطة في معهد ، لم تثر الشكوك لديك ، أول الأمر ، إلا أنه قد يحدث شيء خاص يجعلك تدرك فجأة معناها الصحيح في نطاق الصراع الفكري ، وذلك حينما ينكشف لك صدفة ٠ ان دائرتكالاجتماعية كلها قد أصبحت مركز اشعاع موجه إلى دائرة أفكارك ٠

ولهذا التحول الغريب شروط فنية خاصة ليس هنا موضوع الحديث عنها، لا يتحقق بدونها تركيب الجهاز كله وتشغيله ، ولكن فلنترك هـــذا جانباً تجنباً للاطالة في غير مكانها ، وإنما سنذكر في الفصل المقبل الشروط العامة التي تجعل مثل هذه العمليات متيسرة في البلاد المستعمرة ، غير أننا لا نترك هذا الفصل قبل أن نوضح للقارىء ولو بصفة عابرة ، نقطة تتضمن زبدته الى حد ما : فماذا تفعل أنت حينما تكشف لك الصدفة الخطة الجديدة التي تضمنها هذا الفصل ؟

إنك سوف تجـــد نفسك مضطراً بطبيعة الأشياء ، إلى أن تحطم دائرتك الاجتماعية حينما تشعر أنها أصبحت مركز اشعاع خطير موجه إلى أفكارك ، إذ لم يبق أمامك إلا أن تفصل عنك كل العناصر التي تتركب منهـــا تلك الدائرة أو تنفصل أنت عنها ٠

وإذا حدث هذا ٠ وبوغت القائم بالعمليات بتحطيم الجهاز الدقيق الذي ركبه في دائرتك الاجتماعية ، فكيف تتصور أنه سيرد الفعل ؟

إنك لست في الموضوع إذا تصورت أن الاستعمار يترك معركة علق عليها شيئاً من الاهتمام وبذل فيها شيئاً من الجهد ـــ لأنه رأى ، في ظروف معينة ، أن لا بد أن يوقف بعض الأفكار عند حدها ـــ لست في الموضوع اذا تصورت أنه سيقف مكتوف الأيدي لأنك باغته بمبادرة لم يكن يتوقعها ٠

وإذن ماذا سيفعل ؟

إنه بكل بساطة سيحاول تدارك الموقف بكل ما يتوفر عنده من الوسائل المادية والفنية • انك حطمت جهازه ، نعم ، ولكنه يمكنه أن يرتقه الى حد ما حتى تستمر المعركة الى النهاية التي قدرها •

وإذن كيف يفعل ؟

إنه سيحاول التعويض عن الدائرة المحطمة بدائرة ملفقة ، يركب فيها عناصر مشبوهة لا تعرفها ، وحيث إنك لا تتصل بها أنت فسوف تتصل بك هي في كل مكان تكون فيه ، تتصل بك ، أو بصورة أدق ، تبدي أنها تتصل بك : فهذا مثلاً رجل يركب الاتوبيس الذي ركبت فيه ، وتلاحظ أنه يتظاهر بأنه يعرفك ، دون أن يحدثك ، فهو كأنما يومىء إليك بشيء في نظره ، وحينما تنزل أنت في المكان الذي قررت النزول فيه ، تفاجأ بأنه نزل وراءك ، ولم يبق إذن أمامك إلا التعلق فوراً بالاتوبيس الذي وضعك على الرصيف ، إن لم يكن فاتك ••• وهكذا يبقى الرجل على الرصيف مشدوهاً لفساد خطته •

وتستمر المعركة هكذا ، بمثل هذه التفاصيل الغريبة •

هل هذا كل شيء ، وكل ما يقال في هذا الفصل ؟ فإذن تبقى فائدته معلقة •

قد بينا في الفصل السابق أن تطبيق المبدأين ــ اللذين يكونان أساس الصراع الفكري ، بالنسبة للاستعمار ــ يهدف إلى إقصاء المكافح عن ميدان المعركة ، وفصله عملياً وروحياً عن القضية التي يكافح من أجلها •

يجب إذن أن نبين كيف يصل الاستعمار أو يحاول الوصول إلى هذه الغاية في نطاق التجربة الجديدة التي يصفها هذا الفصل •

إننا تناولنا الجانب التحليلي ولم نعط الجانب العملي كفاية من التوضيح : إننا قدمنا أن الاستعمار يريد أن يعزل عملياً من يدخل حلبة الصراع الفكري ضده

وفصله عن القضية التي دخل من أجلها في المعركة أو على الأقل يحاول فصله عنها معنوياً بالوسائل النفسية المناسبة .

ولكن إذا قررنا أن الاستعمار يعرف الغايات لأنه هو الذي حددها ، فهذا لا يعني أنه يعلم مسبقاً طوارىء الطريق .

وعليه فالقضية تتضمن ، بالنسبة له احتمالين .

أولهما ، هو أن لا يطرأ في الطريق شيء يخالف بصورة ما الأمر الذي بيته فتسير الأمور حسب تقديره إلى النهاية ، أي إلى أن يجد المكافح نفسه في شبكة ، بعض خيوطها من مكر الاستعمار وبعضها من بلادة القابلية للاستعمار ، وبذلك سيجد نفسه مفصولاً فعلاً عن القضية .

والاحتمال الثاني هو أن يحدث طارىء في الطريق يغير وجه المعركة ، لأنك شعرت فجأة بأن عمليات خطيرة تجري على دائرتك الشخصية ودائرتك الاجتماعية ، فيتبين لك على ضوء تجربتك ، معنى هذه العمليات في مصطلح الصراع الفكري في البلاد المستعمرة .

وربما يحدث هذا الطارىء من جراء هذه العمليات ذاتها عندما يخطىء الاستعمار في تقدير بعض تفاصيلها رغبة في التعجيل مثلاً ، فتؤدي به رغبته الى الخطأ ، كي يحقق قوله عز وجل : (إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) .

ويتغير فعلاً وجه المعركة لأن الكاتب سيقوم ، بردود أفعال .

ولو تتبعنا ، منذ هذه اللحظة ، المعركة في صورتها الجديدة ، لحصلنا على تفاصيل أخرى تثري معلوماتنا عن الصراع الفكري .

فما ردود الأفعال التي يستطيع أن يقوم بها الكاتب عندما يكتشف فجأة أنه قد أصبح موضوع عمليات الكف التي أشرنا إليها في هذا الفصل ؟

وما أثرها من الناحية الموضوعية ومن الناحية الشكلية في تعديل خطة الاستعمار ، منذ أن يصبح في مواجهة ردود أفعال لم يكن ينتظرها ؟

إن المكافح الذي يكتشف فجأة الأحبولة التي تهدد أفكاره ، سيسرع أولاً الى تحطيم دائرته الاجتماعية كما قدمنا ، كي ينتزع من أيدي الاستعمار الأداة التي يستطيع بها القيام بعمليات الكف ، ولقد رأينا أن الاستعمار في مثل هـذه الحالة ، يرد الفعـل نفسه بمحاولة إنشاء دائرة اجتماعية ملفقـة حولك ، حيث إنك حطمت الدائرة السابقة ، فيبدأ هكذا دوراً جديداً وإذن ستشعر بأن يداً سوداء تنسج حولك ظروفاً غامضة في كل مناسبة تضطرك الى الخروج ، فمثلاً عندما تركب الاتوبيس تجد نفسك مع راكب اجنبي يقوم بكل وضوح بـدور « المعرفة المورطة » فيظهر ويختفي ، في آن واحد ، ان بينك وبينه علاقة ، لا يمكنك أن تنفيها ، لأن الرجل لم يقل كلمة واحدة ، وإنما تكلم بطريق الإيحاء ، حتى تكون أي محاولة من طرفك لإيقافه عند حده ، محاولة غير قانونية تعرضك لضحك الناس منك .

وتجري المعركة ... هكذا بمثل هذه التفاصيل فتكون يوماً على رصيف في انتظار « الباص » وإذا سيدة أقرب إلى الكهولة ، منها إلى الشباب ، وعليها ملامح الأناقة الخاصة بالسيدات اللائي احتككن كثيراً بالحضارة الغربية تسألك عن الطريق ، بلغة عربية تشعرك لهجتها أنها أجنبية وتدخل فعلاً معك في الحديث فتشعرك أنها تسافر كثيراً ، وأنها آتية من تركيا واليونان ، وأنها مسلمة ، وأنها تقضي صلاتها في جامع كذا .. ثم تسألك هل أنت مسلم ... وهكذا يتسع الحديث ، وفي النهاية تسألك عن كتاب هو أحد كتبك ... وأنت لم تشر بنصف كلمة إلى شخصيتك ككاتب ...

ولا يستطيع من له بعض التجربة في هذا الموضوع ، أن يفسر هذه الكلمات الغريبة كمجرد صدفة اللسان ، ومن طرف هذه السيدة الأنيقة ، التي أتت تسأل عن طريقها فقط ...

ومما يزيد في ريبتك هو أنك خلال حديثك مع السيدة ، قد لاحظت أن

عدسة تصوير بدأت تستعد على الرصيف الآخر ، لالتقاط صورتك مع هـذه السيدة التركية اليونانية ...

فلا يبقى شك في ذهنك بانك في فصل من فصول الصراع الفكري ... وأن وراء حديث السيدة عن صلواتها ، وأسفارها وعما كتب عن القرآن ، وراء كل هذا ... غاية أخرى ...

أي غاية ، يا ترى ؟

إنه سؤال يبقى للأسف بلا جواب ، لأنك لا تعلم الغيب ، وليس لديك من وسائل المعرفة والوصول إلى الحقيقة إلا التفسير والتأويل على ضوء تجربتك ... وهذا الطريق غير معصوم من الخطأ إن لم تسنده وسائل أخرى ليست في يدك...

ولا يبقى لك إذن لمواجهة هذه المحاولات ــ التي تفهمها ، دون أن يقنعك فهمها لا يبقى إلا رد فعل واحد : أن تلزم بيتك ولا تخرج منه إلا عند الضرورة القصوى ...

وتشعر إذن أنك الفرد الذي يواجه الجهاز الضخم ... أنك الانسان المركب من لحم ودم ، أمام الآلة الدقيقة المركبة من حديد وفولاذ ، ويتحقق أمام عينيك المعنى الذي خطر ببالك يوماً ما ، عندما أودعت في مذكراتك أنك « الذرة التي ألقت بنفسها بين قوى هائلة تتصارع في العالم ... وأن الذرة إن لم تحطم ، فهي معجزة ... »

هذا وجه الصراع ، أو بعض ملامحه . من الناحية الموضوعية ، ولكن ما صورته من الناحية الشكلية ؟

إن الفرد الذي اكتشف فجـأة ان عمليات حرمانية تجـري على دائرته الاجتماعية ، قد يقرن تاريخ هذه العمليات بالحدث الذي الفت نظره إليها لأول مرة ، فيصبح هذا الحدث في ذهنه هو بداية العمليات ...

ثم تأتي الأيام بمزيد من المعلومات ، فتكشف عن أن الحدث السابق ، ليس هو البداية وإنما هو من طوارىء الطريق الطارىء الذي لم يقدره القائم بالعمليات تقديراً محكماً حتى استطاع أن يلفت به نظر من تجري على حسابه هذه العمليات، فيكشف هذا الأخير أو يرى على ضوء المعلومات الجديدة ، أن الصورة الأولى التي أخذها عن القضية ، وإن كانت صحيحة من الناحية الموضوعية ، ليست صحيحة من الناحية الشكلية ، إذ أن الحدث الذي كان يرى فيه بدايتها ما كان في الواقع إلا طارئاً من طوارىء الطريق ..

وربما تأتي الأيام بمعلومات أخرى ، فتكون نتيجتها من الناحية الشكلية ، صورة جديدة للقضية في ذهن من يعيش هذه التجربة ...

والآن لو نفرض أن هذا الرجل الذي ليس لديه ، للوصول إلى الحقيقة إلا وسائله الشخصية ، ـ وسائل الفرد أمام الجهاز الضخم ، وسائل الإنسان المركب من لحم ودم أمام الآلة المركبة من الفولاذ ، وسائل الذرة المقحومة بين قوى هائلة ـ لو نفرض أنه اراد ان يرفع القضية ، في صورتها الأولى مثلاً ، امام مجلس أرواح استحضره ، كي يصدر حكمه فيها ... ماذا سيحدث ؟

إن الاستعمار لا يفقد ، في أي حال من الأحوال حق الدفاع عن نفسه ، ولا يفقد وسائل الدفاع طبعاً ...

انه من دون شك سيكون في أحد الاحتمالين :

أولهما هو أنه يعلم أن ، في المرحلة التي أثيرت فيها القضية ، لم يكن لأحد علم بالعمليات إلا عند من هو قائم بها ؛ وعند الذي اكتشف فجأة أنها تجري على حسابه .

ففي هذه المرحلة يكون تصرف الاستعمار من أبسط ما يكون : إنه يوقف العمليات ، ويدخل أصبعه في الظلام ويقول : إن صاحبكم الذي رفع علي هذه القضية مصاب بالوهم والخيال ... فاتركوه إلى حاله حتى يرجع إليه رشده ..

ولا يقول هذا جهراً وإنما يهمس به همساً ، ويوحي به إيحاء على عاداته وطريقتــه •

وثاني الاحتمالين هو أن تثار القضية ، في مرحلة لا يمكن للاستعمار فيها أن يبني دفاعه على أساس البراءة • ولكنه يعلم بطريقته الخاصة أن الرجل الــذي أثارها ، لا يعرف بالضبط بدايتها ، وليس في يده وسائل الوصول إلى معرفتهــا بحيث قد تكون الصورة التي عرض فيها القضية على مجلس الأرواح صحيحة من الناحية الموضوعية ولكن غير صحيحة من الناحية الشكلية ، إذ فيها خطأ من حيث تحديد البداية •

وإذن فسوف يستغل الاستعمار هذا الضعف ، فيقوم بما يسميه أهل القانون « دفع شكلي » لينقض الدعوى ، لا مــن حيث محتواهــا ولكن مــن حيث صورتها ••• وهذا بالضبط منطق إبليس بعد أن أتم تعليمه في مدرسة القانون الروماني ••• التي تهتم بالشكليات أكثر من الموضوع •••

هذه هي الصورة العامة لتجربة معينة خصصنا لها هذا الفصل • كي نبين للقارىء ••• أن الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، يجدد ، بجانب مــن جوانبه وبصورة ما ، الأسطورة الشهيرة التي يصف فيها أفلاطون ، بطريقــة رمزية الحالة الغريبة التي يكون عليها بعض الناس ، حينما يتصورون الواقع ، حسبما يصور لهم لا طبقاً لحقيقته ، فهم يعيشون ، في نظر الفيلسوف العتيق ، في قعر غار ، ملتفتين إلى جدرانه قهراً ، حيث لا يرون سوى الأشباح المتحركة عليه دون أن يفكروا أنها الأشخاص يأتون ويذهبون وراء ظهورهم ، وأن ناراً أوقدت بين باب الغار وأولئك الأشخاص هي التي تلقي ظلهم في صورة أشباح متحركة على الجدران ، ودون أن يشعروا على وجه الخصوص ، أن الحقيقة ليست في تلك الصور الوهمية ، ولا في النار التي تصورها لأبصارهم المسحورة ، بل هي خارج الغار ، في ضوء النهار ، تحت الشمس الساطعة •••

ولو عاش أفلاطون في زماننا لأتيحت له الفرصة أن يضيف لأسطورته صوتاً يتخافت ويهمس همساً : صوت الملقن أو المفسر الذي يدلي بالتفسيرات ، أو بوجه أدق يدلي بالإيحاءات المناسبة لأصحاب الغار ليزيد في خبالهم خبالاً .

ويكون بذلك وصف حالتنا حينما يبدي لنا الاستعمار ما يريد من الصور الوهمية ، ويصف لنا الأشياء كيفما يريد بصوته المتخافت . ومهما يكن من الأمر فاننا نستفيد مما قدمنا ، أن الاستعمار ، إذا حاول وخاب مرة أولى ، وثانية وثالثة الخ فانه مستمر رغم ذلك في طريقه ، مصر على خططه ...

وقد نعجب من هذا ونتساءل لماذا يصر ؟

والجواب هو أن الاستعمار يعلم بكل تأكيد أن الرجل الذي دخل المعركة هكذا ، في جبهة الصراع الفكري ، ليس بيده كل ما يتمنى من وسائل الدفاع ، وأن ردود أفعاله ستكون محدودة بالضرورة ، والظروف السياسية العامة ذاتها قد تحدها أحياناً ، وعليه ليس في مواصلة العمليات التي وصفنا بعضها أي خطر بالنسبة لمن يقوم بها ، لأن الاستعمار يعرف ، كما بينا خريطة الأرض التي تجري عليها ، وإنه أمن جميع طرقه ...

وبالتالي فإنه يقدر على ضوء معرفة دقيقة في هذا الميدان ، أن استمراره في خططه بعد المرة الأولى والثانية والثالثة الخ . سوف يؤدي إما لفصل المكافح فصلاً عملياً عن القضية التي دخل من أجلها في المعركة وإما أن يفصله عنها معنوياً عندما يصور له عبث تلك الذرة التي تريد أن تحطم الجبل .

هذا ما يريد وما يقدر الاستعمار ، ولكن الأمر ليس بيده ولا بيد أحد . إنه بيد من يقدر الأشياء تقديراً فتسير الذرة ويسير الجبل حسب تقديره .

الفصل الرابع

مظاهر أخرى للصراع الفكري

إننا بينا في الفصول السابقة كيف يركب الإخصائيون المشرفون على الصراع الفكري أجهزة خاصة لتحطيم الأفكار ، كما يركب العلماء المختصون في علم المواد المشعة أجهزة لتحطيم الذرة •

وقد تعرضنا ونحن في الطريق الى حالات كشفت لنا عن بعض أسرار الصراع الفكري في البلاد المستعمرة وعن الشروط الاجتماعية ـ النفسية التي تجري على مقتضاها هذا الصراع •

ولكن حالات أخرى بقيت ، لا شك في الظلام ، إما لأننا نجهلها تماماً ، على الرغم مما يكون فيها من الدلالة والفائدة ، وإما لأننا أغفلناها في الفصول السابقة بمقتضى الترتيب الذي يفرضه الموضوع بينما لا شك بأننا لو تناولناها ، وأمكن ذلك ، لكشفت لنا عن حقائق أخرى تدل على قوة جهاز الاستعمار في هذا الميدان وعلى إحكام خططه ، وربما دل أيضاً بعضها أحياناً ، بصورة غير منتظرة على ضعف غير متوقع في هذه الخطط ، يشعرنا بمصداق الآية الكريمة (إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) •

فعندما نتناول فصلاً من الصراع الفكري ، تعترضنا حالات تدل فعلاً على أن قوة الاستعمار في الوسائل يتخللها أحياناً ضعف في التفكير يجب أن نعيره أيضاً بعض الاهتمام كما نهتم بالعناصر التي تدل على قوته •

فعلى سبيل المثال ليتصور القارىء أنه دعي يوماً ليحاضر وأنه اختار إحدى مشكلات البلاد الأفريقية الأسيوية كموضوع لمحاضرته •

فمن المعلوم على ضوء ما قدمنا أن موضوعاً كهذا جدير بأن يثير اهتمام مراصد الاستعمار فوق أي موضوع آخر لأنه يتصل بالمشكلات التي تناولها ، مباشرة أو ضمناً مؤتمر باندونج ، أي بالمشكلات التي تكوّن أهم نشاط سياسي في منتصف القرن العشرين وأهم مركز للتفكير الاجتماعي في عصرنا •

وعليه فنكون من البسطاء إن لم نقدر مبدئياً أن المراصد المختصة ستكون ، بصورة أو بأخرى ، على أهبة للقيام بمهمتها وهذا من بديهيات الصراع الفكري في البلاد المتخلفة ، ثم نجد فعلاً في صحافة اليوم الذي يلي المحاضرة تعليقاً طويلاً على موضوعها ، دون أن يذكر اسم المحاضر مرة واحدة ، أو يذكر أنه تعليق على محاضرة معينة ، وإنما يقوم صاحب هذا التعليق بدور تمثيلي ، شاهدنا أدواراً مثله في الطريق • خلال التجربة الطويلة فنراه يفور غضباً على موضوع المحاضرة ، فيستخف صاحبها الذي يتناول موضوعاً سخيفاً كهذا إلخ ••• ثم يتنازل ويعطف على هذا الغبي فيتبرع عليه بالحقيقة التي لم يهتد إليها في محاضرته غير الموفقة ، فهذا دور كامل بجميع تفاصيله من الأدوار التي يخصص لها الاستعمار بعض الممثلين •

فلو كانت ليد الاستعمار رائحة لاكتشفنا بأنوفنا بعض الحقائق الخاصة بالصراع الفكري دون أي إجهاد لعقولنا ولاكتشفنا مثلاً أن الظروف التي أحاطت بمحاضرة كهذه كانت كلها تعبق بهذه الرائحة منذ توجيه الدعوة إلى المحاضر ، إلى ظهور التعليق الصحافي الغريب على المحاضرة نفسها •••

وليس في هذا كله أية غرابة •• إنه الصراع الفكري في البلاد المستعمرة •••

ومهما يكن من أمر ، فإن غرضنا في هذا الفصل الوصول ، بقدر الإمكان ، إلى بعض الحقائق التي لم نصل إليها في الفصول السابقة •

وقد تكون الحقيقة التي نصل إليها متصلة بجانب واقعي، أي أننا نستخلصها من سياق قصة تتضمن سلوكاً معيناً يكشف لنا عن ضعف خلقي في مجتمعنا ، أو تكون متصلة بجانب نظري ، عندما نستنتجها من سياق منطقي يتضمن طريقة تفكير معينة ، تكشف لنا عن ضعف في جهازنا الفكري .

وأحياناً يكشف لنا الواقع الذي نقف عنده جانبي الضعف في وقت واحد : قد نذكر مثلاً كيف تتصرف جريدة ، تصدر تحت شعار العلم والدين ، حينما يرسل إليها أحد بمقالة في موضوع اجتماعي يتصل كتوجيه عام بالحياة السياسية فإذا بنا نرى الصحيفة العلمية الدينية ، تجزىء المقالة المذكورة إلى نصفين ، فتنشر النصف الأول ، ثم لا تنشر النصف الثاني إلا بعد أسابيع ، أي عندما لا يبقى أثر ما نشر من الأول في الأذهان ، ولا يبقى للقارىء فرصة ليشعر بوحدة الموضوع ويدرك معناه في حدودها ، وحتى تفوت بالتالي ، على القارىء الفائدة التوجيهية التي قدرها صاحب المقالة كهدف لمقالته .

فقصة كهذه ، زيادة على أنها تعرض إلى تأملنا اعتبارات واقعية تتعلق بسلوك أفراد يستغلهم الاستعمار في بعض ظروف الصراع الفكري فإنها تضعنا من ناحية أخرى ، أمام اعتبارات نظرية ذات أهمية تتعلق بحياة الأفكار ذاتها ، ككائنات حية مستقلة ، تؤدي وظيفتها بنفسها طبقاً لفعاليتها الخاصة ، كما تتعلق بالفكر كأداة تنسيق وتركيب للأفكار حتى تؤدي وظيفتها .

وعليه فالجانب النظري في موقف صحيفة كالتي سبق ذكرها يجب أن يثير اهتمامنا كله .

إننا تحدثنا ، فيما سبق عن النزعة « الذرية » النزعة التي تجعل ، كما بينا ، تفكيرنا عاجزاً عن ضم مجموعة من الأفكار في اطراد واحد طبقاً لتسلسلها بحيث يكون عقلنا لا يستطيع تتبع الفكرة في حركتها المنطقية ، ولهذه النزعة ، في الميدان السياسي يرجع سبب تحطيم وحدة المشكلات العضوية وتجزئة الحلول ، حتى

تصبح السياسة العاطفية ، وهي التعبير عن التفكير « الذري » في الواقع المحس، تصبح تلك السياسة عاجزة عن صياغة حكم صحيح على ذلك الواقع ، لأن الحكم يفترض قاعدة يجب الرجوع إليها ، ومقياساً تقاس به الأمور ! أي يفترض تركيب مجموعة أفكار وتنسيقها ، أعني أن « الحكم » يفترض عمليات ذهنية لا تتفق مع التفكير الذري .

والشيء المؤسف في مثل هذه الحالة هو أن المرض له تأثير عكسي أو متبادل ، فعندما تصبح السياسة عاجزة عن صياغة الحكم اللائق عن واقع البلاد ، تصبح البلاد عاجزة عن صياغة الحكم الموفق في توجيه سياستها وفي تعديلها إذا انحرفت .

فلو أننا حللنا بعض الحالات السياسية التي نتجت في البلاد الإسلامية على أثر الحرب العالمية الثانية ، فسنخرج حتماً بنتيجة هي أن الذين قادوا الشعوب الى الكوارث الكبرى لم يكونوا من المحترفين العاديين الذين يسيرون في ركب الاستعمار على مرأى العيون بل هم على العكس من ذلك ، رجال مكرمون ، مرفوعون على منابر الزعامة وكراسي الحكم : رجال وضعوا في حرم أوطانهم مواضع « الأبطال » وبنيت لهم الأضرحة الفخمة أو هم بنوها من أموال أوطانهم قبل أن يبرحوا الحياة الدنيا .

ليس في إمكان أي مؤرخ اجتماعي أن يقدر تقديراً صائباً الكارثة التي حلت بالعالم الإسلامي يوم تأسست دولة باكستان ولكن نستطيع من الآن أن نقول إنها غيرت مجرى تاريخ الاسلام في آسيا لعدة قرون ، وحينما نحلل هذه الكارثة كحادث سياسي يتصل بطبيعة الحال بطريقة تفكير معينة ، نرى أن فكرة « باكستان » هي أبرز صورة تظهر فيها النزعة « الذرية » بكل وضوح .

فهي ، كفكرة ، تكوّن في حد ذاتها حالة جديرة بالاهتمام في دراسة كهذه ، لأنها تكشف لنا جانباً من الصراع الفكري لم نقف عنده في الفصول السابقة ، إذ أننا لم نتناول الموضوع حتى الآن ، إلا من جانب سلبي ، أي أننا تعرضنا الى

الحالات التي تكشف لنا كيف يرسم الاستعمار خطته كي يحطم أفكاراً معينة أو كيف يسد أمامها الطريق حتى لا يتركها تصل الى وعي الجماهير •

أما الحالة التي نتناولها هنا فإنها تكشف لنا عن جانب ايجابي ، أي تكشف لنا ، هذه المرة ، كيف يخلق الاستعمار الأفكار المناسبة لمصالحه ، وكيف يغذيها في وعي الجماهير ، ويروجها في أسواق السياسة العاطفية •

إن فكرة باكستان من هذا الإنتاج : فكيف استطاع الاستعمار أن يحقن بها ضمير المسلمين ؟•

إنه من الواضح أن القضية تتصل بجوانب الضعف في هذا الضمير ، أي بمجموعة الاستعدادات التي أطلقنا عليها ، في دراسة أخرى ، القابلية للاستعمار ، كما تتصل من ناحية ثانية ، بفن الاستعمار ، في خلق الأسطورة •

فربما أعطانا عرض هذه القضية ، كمجرد حادث من حوادث التاريخ السياسي في القرن العشرين ، فرصة لإضافة بعض الملاحظات للموضوع ، لأن خلق فكرة باكستان من أهم الحوادث السياسية التي تتجلى فيها جوانب ضعفنا وفنية الاستعمار •

لسنا في حاجة الى أن نتناول أصول الفكرة البعيدة التي تمتد الى حوالي سنة ١٩٠٦ ، حينما أعلنت مراصد الاستعمار الانجليزي ظهور فكرة جديدة في أفق السياسة الامبراطورية في ذلك العهد تلك الفكرة التي كانت تتمثل في صورة جبهة وطنية معادية للاستعمار تكونت في الهند على يد الزعماء الذين كانوا يخوضون المعارك التحررية الأولى مثل متيلال نهرو ، والد رئيس الحكومة الهندية السابق •

ولكنا سنتناولها حين كانت على وشك التحقيق ، في صورة مشكلة سياسية ملحة ، أعني في الملابسات الدولية التي خلقتها الحرب العالمية الثانية •

إن من الواضح أن هذه الحرب قد خلقت تصميماً عالمياً جديداً ، وانتهت

إلى توزيع جديد للقوى في العالم ، ولم تكن السياسة الإنجليزية متسمة بطابع العاطفة حتى تنسى أنها ملزمة بمواجهة هذه الحالة الجديدة •

فعلينا إذن أن نتصور هذه الضرورة السياسية حينما تدخل الدور العملي التطبيقي في تخطيط يشرف عليه رجل مثل تشرشل ، إنه يجب أولاً أن نتصور القضية كما يتصورها هذا العملاق السياسي أي أن نضع المشكلة كما يضعها هو في مصطلحات « القوة » كي نفهم الحل الذي وضعه لها •

وتشرشل لم يكن بكل تأكيد ، آخر من قرأ ، من رجال الدولة الانجليزية المحاضرة الشهيرة التي ألقاها السيرجون هالفورد وتناول فيها كموضوع « القاعدة الجغرافية للتاريخ » كما أنه لم يكن بكل تأكيد أيضاً الرجل الذي لا يحسم أية مشكلة سياسية ذات أهميـة معينة ، دون أن يلقي أولاً نظرة على الخريطـة الجغرافية •

وعلى هذا ، ففي سنة ١٩٤٥ وجدت انجلترا نفسها مضطرة الى حل مشكلة الهند في وضع دولي غيرته الحرب العالمية الثانية ، تغييراً شاملاً ، حتى لم يعد أي حل صالحاً لحسم هذه المشكلة ، إذا لم تستمد عناصرها كلها من الواقع العالمي الجديد ، إذا لم يراع فيها ما تمليه خريطة التوزيع الجديد للقوة في العالم •

وهذا الواقع العالمي الجديد يفرض ، أولاً وقبل كل شيء ، استقلال الهند ، كضرورة تمليها الظروف القاسية ، بالنسبة للاستعمار ، التي نتجت عن الحرب ، ولكن هذه الظروف نفسها وضعت انجلترا أمام « مشكلة القوة » لا بد من حلها في ملابسات دولية جديدة على أي صورة ، فكان عليها إذن أن تأخذ في حسابها ، ثلاثة عوامل في سياق واحد :

١ ـ تطور ستمائة مليون صيني على حدود البلد •

٢ ـ تطور أربعمائة مليون ، تمثل مجموع الشعب الهندي •

٣ ـ تطور الجماهير المسلمة الموزعة على خريطة آسيا •

وهذه الحشود من البشر تكون ، في نظر رجل سياسة مثل تشرشل ، يخضع

تفكيره الى مبدأ الفعالية ومنطق القوة ، قوات هائلة لا بد من تضعيفها أو توجيهها أو تحطيمها .

وكان حل المشكلة الاولى يبدو ، خلال السنوات التي تلت الحرب مباشرة ، كأنه قد تحقق فعلاً في شخص تشانج كاي شيك ، حيث كان توجيه الشعب الصيني على يده شيئاً ممكناً . ولكن سرعان ما ذهبت التطورات السياسية في البلاد بهذا الحل الى ظلمات التاريخ . وبدت هذه المشكلة في صورة جديدة بالنسبة للمنطق السياسي الذي يطبقه تشرشل ، إذ يجب أن يفكر الآن كيف يبني على حدود الهند ، سداً للحد من انتشار الشيوعية الصينية في شبه القارة وفي جنوب شرق آسيا . بينما لا يمكن أن يكون هذا السد سوى استقلال الهند ، حتى لا يبقى للشيوعية تأثير على الشعور الوطني في الهند ، ولا تبقى — في حالة نشوب حرب عالمية ثالثة — جاذبية خفية كالجاذبية النازية التي أثرت قليلاً أو كثيراً ، على الشعوب المستعمرة خلال الحرب العالمية الثانية .

وهنا تواجه انجلترا المشكلة الثانية : فعندما تستقل الهند بملايينها الأربعمائة ، تصبح قوة من الدرجة الأولى في آسيا(١) .

فيجب إذن التوفيق بين استقلال الهند ، كضرورة في التخطيط السياسي العالمي الجديد وبين ضرورة إضعاف قوتها .

فكانت فكرة باكستان ثمرة هذا التوفيق ، أي أنها الحل المناسب للمشكلة الثانية التي كان على تشرشل أن يحلها ، غداة الحرب العالمية الثانية ، في نطاق استقلال الهند . ولكن إذا كانت الفكرة تحددت مبدئياً فيما يبدو في نطاق المشكلة الثانية فإنها تتخذ صورتها الكاملة في نطاق المشكلة الثالثة ، أي بالنسبة الى مصير الجماهير المسلمة التي يحتمل أن تكوّن في الهند وفي جنوب شرق آسيا قوة هائلة ، إذا تابعت سيرها على الطريق الذي تسير عليه منذ انتشار الإسلام هناك .

---

(١) مما يلاحظ بهذا الصدد ان نهرو نفسه اعترته نشوة القوة : غداة استقلال الهند : حيث رأيناه يصرح في ذروة الفرح ان الهند تكافح إلى أن تكون دولة عظمى مع الصين وأمريكا . فكان إذن تشرشل محقا في وضع المشكلة في مصطلح القوة .

فكما أن استقلال الهند كان في الواقع سداً في وجه الشيوعية ليحد من انتشارها ، فكذلك كان تأسيس دولة « باكستان » سداً وضع ليحد من انتشار الإسلام في الهند حتى لا تنشأ « قوة » إسلامية في شبه القارة ، نظراً الى أن كل ما يضعف مركز الإسلام في الهند يضعف إشعاعه في آسيا وبالتالي في العالم .

إن هذه التفاصيل تدخل كلها في الحسبان في عملية سياسية معقدة ، وفي عملية ذهنية واحدة يقوم بها رجل سياسة مثل تشرشل حينما يفكر في مشكلة معينة تتضمن التوزيع الجديد للقوى في العالم .

ومن هنا تبدأ فكرة باكستان التي تهمنا كقضية فكرية في نطاق الصراع الفكري لأننا نرى الاستعمار يحقنها في الضمير المسلم بسهولة نادرة .

إننا رأينا كيف قدر الاستعمار الحلول لمشكلة سياسية معينة ، طبقاً لمبدأ توزيع القوى المناسب لمصالحه .

ونحن هنا نرى في الواقع أن الاستعمار يأتي بهذه الحلول ، وهو يلقي نظرة على الخريطة الجغرافية التي سترسم على سطحها ، ونظرة أخرى الى الخريطة النفسية للعالم الإسلامي الذي سيستقبل تلك الحلول بالتهليل والتكبير .

وهو في نظرته الأخيرة هذه إنما يكشف النزعة الذرية أي النزعة التي تجعلنا لا نتصور قضية سياسية في صورتها الحقيقية ، لأننا لا نجمع عناصرها في عملية ذهنية واحدة ، ولا نرتب تفاصيلها في سياق واحد .

فعندما فكر تشرشل ، على أثر الحرب العالمية الثانية ، في قضية التوزيع الجديد للقوى في العالم نراه يدرس في الواقع ثلاث مشكلات أشرنا إليها ، لم تر قيادتنا السياسية في كل هذا إلا مظهراً واحداً ، هو تأسيس دولة باكستان ، طبقاً للميول العاطفية المستولية على الخطة السياسية في بلادنا وطبقاً للنزعة الذرية المستولية على العمليات الفكرية عندنا .

وهكذا فعندما يحطم الاستعمار فكرة معينة ، مثلاً كتلك المقالة التي مزقتها

الصحيفة العلمية الدينية التي أشرنا إليها ، نرى الفكر عندنا عاجزاً عن جمع شتاتها، في عملية ذهنية واحدة تعيد إليها وحدتها ومغزاها[1] نراه عاجزا أيضاً ، ولنفس السبب ، عن اكتشاف التزييف عندما يخلق الاستعمار فكرة مزيفة ليروجها في سوق السياسة العاطفية .

وهذا العجز في الاتجاهين ، ليس من طبيعة الفكر الإسلامي كما يزعم المستشرق جيب ، ولكن من أثر التطورات التاريخية التي اعترته منذ عهد ما بعد الموحدين وبالخصوص ، منذ عهد الاستعمار والقابلية للاستعمار ، فسلبته ميزات العقل الذي شق طريق الحضارة الإسلامية ومهد سبيل الحضارة الحديثة ...

وهكذا كلما يسلب العقل ميزاته ، ويفقد المقاييس التي تهديه السبيل، تكون الكوارث السياسية على الأبواب ، ويستطيع الاستعمار ، أن يحقق أهدافه ضد الأوطان والأديان ، تحت شعارات مقدسة كـ « إسلام » و « وطن » .

وها نحن ، بعد عشر سنوات تقريباً ، نرى أن المسلمين ، الذين كانت دعوى إنقاذهم أساساً لفكرة باكستان يرون أن منقذيهم شتتوا شملهم ، وبددوا قوتهم ، ومزقوا وحدتهم ، وصيروهم أقلية حقيقية ، بدعوى أنهم لا يريدون أن يتركوهم في وضع أقلية وهمية ومما يزيد في العار وفي فضيحة الموقف ، وفي خزي السياسة العاطفية أن نرى سخف المنطق الذي سارت على هديه القضية حيث قلنا ، تأييداً لها ، أو سمعنا من يقول ، تدعيما لبرهانها : نعم إن المسلمين يأكلون البقرة والهندكيون يعبدونها ، فلا يمكن أبداً أن نجمع بين طائفتين هذا شأنهما .

ولو استطاعت البقرة النطق لقالت : ما بال القوم لا يتركونني وشأني ، مع من يعبدني ومن يأكلني .

ولكن للأسف أن القيادة السياسية التي قادتنا في معركة فلسطين ، وفي

---

(١) قد شاهد المؤلف هذه الظاهرة ، لا في تجربة واحدة ، ولكن في تجارب متعددة ، فهو إذن يقدر هذه الخاصية تقديراً موضوعياً .

تقسيم الهند لم تكن من ••• نوع البقر ••• وإلا ما كان يستطيع تشرشل أن ينفذ خطته ولا الاستعمار أن يحقق أهدافه •

وها نحن أولاء مضطرون في النهاية إلى تسجيل حقيقة مرة مثلما سجلها التاريخ : فعلى اعتبار أن فكرة باكستان كانت في عقولنا دواء لحالة مسلمي الهند ، فيجب أن نعترف أن الدواء كان شراً من الداء •

ولكن مما يسلينا ويواسينا هو أن القواعد والمقاييس المنطقية قد تغيب ، أحياناً حتى في البلاد التي تتلقى منها الدروس •

لقد رأينا منذ أسابيع ، موجة استنكار تكتسح العالم بسبب حكم أصدرته السلطات الاستعمارية في الجزائر على فتاة جزائرية • وإننا نشارك طبعاً في هذا الاستنكار حينما نرى أبرز الشخصيات السياسية تحني الرأس تقديراً للرأي العالمي ، ونحن أيضاً نحني الرأس أمامه ، ولكن أليس من حقنا أن نسأل أنفسنا لماذا هذه الصحافة التي هزتها الموجة التي نشير إليها ، كما اهتزت أيضاً لقضية الكردينال مندزنتي ولقضية مكاريوس ، لم تحرك ساكناً بشأن فضيلة الشيخ العربي التبسي حينما اختطفته اليد السوداء من بيته في الجزائر فغاب حتى الآن خبره •

إن مشكلة المقاييس لها حتما دورها في جميع البلاد ، وفي سائر الميادين ، والواقع يدلي لنا أحياناً بالبرهان : فمثلاً ، بمناسبة معرض الرسم في لوس انجلوس ، منذ شهر[1] منحت الجائزة للوحة ثبت أخيراً أنها من عمل ببغاء أراد صاحبه أن يفسح مناسبة للضحك ، وطبيعي أن الجمهور ضحك فعلا عندما بلغه صدى القصة ، وضحك على حساب المحلفين الذين أصدروا حكماً على عمل دون الرجوع إلى مقياس ، ولكن عندما يحدث هذا الخطأ ، في السياسة على أثر حكم مماثل ، فالمناسبة لا تكون حينئذ للضحك • بل للبكاء •

---

(١) كتب هذا الفصل سنة ١٩٥٦ •

غير أن هذه المشكلة لا يبلغ أثرها في البلاد الأخرى ما يبلغه عندنا • حيث يمتد إلى جميع الميادين السياسية والفكرية فإن العالم الغربي على الرغم من أن « القاعدة المنطقية » لا تحتل فيه مكاناً كالذي نجده لها في دول أخرى فإن الناس هناك لا يستهينون بالمقاييس ، بل يرجعون إليها دائماً في قياس الأفكار وأنواع السلوك ، بل يحدث أن يتخذ « النقد الذاتي » في الغرب لهجة تفوق قساوتها ما تصل إليه في بلاد أخرى تتعصب لمبدأ النقد ، وقد حدث فعلاً هذا منذ شهور عندما وجه أحد أعضاء مجلس اللوردات بانجلترا نقداً إلى الملكة اليزابيث ، فكان لنقده صدى كبيراً في البلاد نفسها وفي العالم •

وهكذا نرى تأثير المقاييس المعدل في حياة الشعوب وفي توجيه سياستها •

اننا ندرك ، من هنا اهتمام الاستعمار بالاتجاهات المعادية لنظام الرقابة الذاتية ، وكيف يرعاها لأنها تدعم الانحرافات التي يريد دسها ، عن طريق « أفكار متجسدة » في سياسة البلاد التي تحاول التخلص منه ، وكيف يسعى بكل جهده لتحطيم الأفكار المجردة حتى لا تقوم بدورها المعدل ، وهو يبلغ هذه الغاية حين يحرك الميول المتجسمة في الفرد أو « مركب الأفراد » الذي يمثل الكفاح ضد الاستعمار في الصورة التي تكون في نظره شراً لا بد منه لإبقاء الشعب المستعمر في نطاق السياسة العاطفية ، وللحيلولة بينه وبين بلوغ مرحلة السياسة المقعدة التي يشير إليها رجل السياسة ، في التصريح الذي أوردناه في الفصل الأول ، بأنها « علم لا يخطىء » •

والاستعمار يطبق في هذا المجال طريقة « دمل التصفية » فهو يجمع القوى المعادية له تحت سلطان العاطفة ، حتى لا تتجمع تحت قيادة « الفكرة المجردة » فتراه أحياناً يلوح بالمنديل الأحمر في مكان معين ليستدرج اليه القوات المكافحة ضده ، وتارة يسلط عليه أضواء المصابيح كي يلفت انتباه الجماهير عن مكان آخر تدور فيه المعركة •

ونرى أحياناً أبطال السياسة العاطفية يقومون تحت إشرافه ، دون أن

يشعروا ، بدور ، صمام فصل الدائرة الكهربائية ، في الراديو ، ذلك الجهاز الذي يفصل بعض الموجات غير المرغوب فيها عن الاستقبال : فهو يفصل هنا بعض الأفكار عن الحركة السياسية ، حتى لا تؤثر في توجيهها أو في تعديل انحرافاتها إذا حدثت .

فلو أننا تتبعنا النشاط الاستعماري في الميدان الفكري في دورة كاملة ، أي في معركة تحرر من بدايتها ، لرأينا أن « صمام الفصل » الذي نشير اليه يقوم بدوره على مرحلتين :

أ ـ ففي مرحلة ما قبل الثورة تراه يقوم بدور اللافتة التي ترفع فوق رأس الشعب الشعارات الساحرة : الحرية ، الاستقلال ، الوطن ؛ حتى يحوّل الأنظار عن الأفكار الفنية التي تبحث عن الطرق العملية لتحقيق هذه الشعارات .

ب ـ وفي مرحلة ما بعد الثورة أي في مرحلة التنظيم ، بعد التحرر ، ترى نشاطه يشوه تلك الشعارات ذاتها حتى يستولي على العقول الريب ، ويتسرب إلى القلوب الندم ، والأسف على عهد الاستعمار .

وهكذا تستخدم السياسة العاطفية كـ « صمام فصل » في المرحلة الأولى لتجميد الطاقات التحررية في المكان الذي يلوح فيه الاستعمار بالمنديل الأحمر ، ثم في المرحلة الثانية تستخدم لتهديد المثاليات التي دارت تحت لوائها معارك التحرر ...

وفي كلتا الحالتين يهدف الاستعمار ، بالوسائل المناسبة إلى فصل البلد المستعمَر عن بعض الأفكار ، فإذا كانت منبعثة من الداخل ، فمن الميسور لديه أن يستخدم وسائل الضغط والإرهاب مع من دخل المعركة تحت رايتها ، أما إذا كانت آتية من الخارج ، أي إذا كان صاحبها قد أفلت من نفوذ الاستعمار المباشر ، فسيكون الاستعمار مضطراً الى التكيف مع الظروف الجديدة في الصراع الفكري، والى استخدام الوسائل العلمية التي أشرنا إليها عندما وصفنا صنفين من « مرآة الحرمان » في الفصول السابقة .

الفصل الخامس

على هامش كتاب

إننا لم نقل ، عندما وصفنا في الفصول السابقة صنفين من « مرآة الحرمان » إن ما وصفنا هو كل ما تنتجه ترسانة الاستعمار لتحطيم الأفكار .

إننا لو فكرنا هكذا فسوف نكون قد اسأنا الظن بالاستعمار وبإمكانياته المتعددة المتنوعة لمواجهة الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة ، بل إن كل مناسبة جديدة تكشف لنا عن وسائل جديدة ، وعن خطة مجددة ، وعن شباك محدثة ، كأن الاستعمار لا يريد أن يترك لخصومه أن يدخلوا معركة اليوم ، بما تزودوا به لمعركة الأمس ، فوسائله تتنوع حسب الظروف ، وطبقاً للمناسبات ، فهو لا يحافظ إلا على المبادىء الأساسية التي يطبقها في كل مناسبة ، وفي أية ظروف .

وعليه فتكون محاولة جنونية ، لو هدفنا في هذا العرض الى أن نضع قائمة إحصائية للوسائل التي يستخدمها ، وللخطط التي يطبقها في الصراع الفكري ، لقد أردنا فقط تزويد القارىء بمعلومات كافية عن المبادىء ذاتها . ولو استطعنا أداءها له بالطريقة النظرية البحتة ، أي دون ذكر تفاصيل خاصة لفعلنا ؛ ولكننا نطرق موضوعاً جديداً ، كل الجدة ، بحيث لا يمكن تناول الجانب النظري منه ، منفصلاً عن الواقع الذي يدل عليه ، وإنه لا يمكن أن نجرد حقائق الصراع الفكري في البلاد المستعمرة دون أن نذكر الواقع الذي منه جردناها ، ولا يمكن أن نستخلص المبادىء دون أن نشير إلى الوقائع التي استخلصناها منها ، مع

ما يناسب من التحفظ في الموضوع ، حتى لا يكون للنزعة الذاتية فيه مجال" باسم التجربة الشخصية ..

إن الشيء الذي تقره التجربة بكل وضوح ، هو أن الاستعمار يتكيف مع الظروف ، حتى إنه يتخذ أحياناً طرقاً وسبلاً ، لا ينتظر أن يتخذها ويتبعها لبعدها ، ظاهراً ، عن الميدان الذي تدور فيه المعركة ، حتى إن الفكر يصبح أحياناً في حيرة حينما تتجلى له فجأة الحقيقة ، وهي ان الاستعمار يفتح دائماً في الصراع الفكري أبواباً جديدة ، لم نكن نفكر أنه سيأتي منها هجوم ، فيأتي الهجوم من تلك الناحية التي لم نعد" لها عدتها ، ولم نستعد لصد الغارات التي تأتينا منها .

هذه حقيقة الصراع الفكري بصفة عامة ، وإنما نريد توضيحها بواقعة تتضمن تفاصيلها ومحتواها .

فليتصور القارىء أنه أتى الى عاصمة عربية منذ أربع سنوات ليقوم بمسؤولية مواطن ومسؤولية كاتب .

وأنه أتى بالخصوص من أجل نشر كتاب يتعلق موضوعه بمؤتمر باندونج ، ولا شك أن القارىء الذي أخذ عبرة مما قدمناه وأصبحت لديه خبرة بما سلف ذكره ، لا شك أنه يقدر ، أول ما يقدر ، أن كتاباً هذا موضوعه لا يمكن أن تغيب فكرته عن شبكة المراصد المختصة بالصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، ولو ذكرنا بعض التفاصيل البسيطة لزدنا هذا القارىء يقيناً بموضوعية هذا التقدير ، وإنما نلخص هذه التفاصيل كلها فنقول : إن من يكتب في موضوعات كهذه ، وهو يعيش في بلاد مستعمرة ، يرى نفسه « كذرة ألقت بنفسها بين قوى رهيبة متطاحنة ، ويشعر بأنه إن لم يحدث لتلك الذرة أن تسحق الى غبار الغبار فإنها معجزة » .

ومن الطبيعي إذا كان في نفسك هذا الشعور عند وصولك إلى العاصمة العربية أن تفكر أولاً كيف تضع الكتاب الممقوت في قرار مكين ، فتتوجه به مثلاً

الى إحدى الهيئات لتجعله تحت رعايتها ، ولسوف يتم هذا فعلاً ، كما تمنيت ، إلا أنك سوف تفاجأ أثناء زيارتك لتلك المصلحة الحكومية ، حينما يقول لك من يتحدث باسمها ، إن أحد الصحفيين ، وهو مراسل جريدة كبرى من باريس قد سبقك ، وقدم لنفس المصلحة عرضاً بأن يقـوم فيلسوف فرنسي بدراسة عـن موضوع مؤتمر باندونج ، حتى يستخلص منه نتائجه النظرية ، في صورة تخطيط لحضارة افريقية آسيوية تضم في تركيبها جانباً غربياً •

ولا شك أن من تتبع النظريات السياسية منذ الحرب العالمية الثانية ، سيشعر حيناً بما في هذا العرض الغريب من قرابة لفكرة أوربا ــ أفريقيا « التي جادت بها القريحة الاستعمارية الصادرة عن فلسفة النازية » وهي من مخلفات هتلر الفكرية في النفسية الاستعمارية الجديدة التي نرى ، مـن آثارها السياسية ، الجبهـة الأوربية التي اتخذت قاعدتها في مدينة سترازبورج بشرق فرنسا •

فعرض الصحفي الباريسي يتضمن هـذه الفكرة الاستعمارية في نطـاق وسع : نطاق فكرة أوربية ــ أفريقية ــ آسيوية •

ومما يزيد أهمية هذا العرض ، هو أنه ، فيما يبدو وكما قيل أثناء زيارة المصلحة المذكورة ، قد عرض أيضاً على شخصيات مختصة بنيودلهي وبجاكرتا •

فهذا دون ريب ، مسعى غريب ، ولكن غرابته ذاتها تزيدنا اهتماماً بشأنه ، وتدعونا إلى التفكير في أمره •

وإذا فكرنا فيه زاد اهتمامنا بقدر ما تقل غرابته في نظرنا إليه من وجهات متعددة : فيمكننا أولاً أن نناقش العرض الذي قدمه الصحفي الباريسي على أنه مجرد فكرة نشأت في عقل إنسان ، أي كفكرة تقبل المناقشة ، وكرأي يقبل الأخذ والرد ، كوجهة نظر خاصة تحتمل الصواب والخطأ ، تبعاً لما إذا كنا نعترف أو ننكر إمكان قيام حضارة أفريقية آسيوية يكون في تركيبها دور خـاص للحضـارة الغربيـة •

ولكن أليس في موقف كهذا إفراط في البراءة ؟

إن من له أدنى حظ من الخبرة بالموضوع ، يرى نفسه مضطراً إلى تأويل عرض الصحافي الباريسي تأويلا آخر : وإذا بما كان يستهان به في مجرد النظرة الأولى إلى هذا العرض الغريب ، سيأخذ مظهراً جديداً لا مجال فيه للبراءة .

فالنظرة الفاحصة إلى عرض غريب كهذا ، تكشف من أول لحظة (في لونه الخاص ، وفي ضوء الملابسات السياسية التي تمر بها البلاد الافريقية الأسيوية) أنه يتصل بالصراع الفكري الذي نشأ على أثر مؤتمر باندونج ، فإذا قدرنا أن المراصد المختصة بهذا الصراع قد تهتم بظهور أي كتاب يتصل بموضوع باندونج فمن الأحرى أن نقدر اهتمامها الخاص بكتاب فيه محاولة استنباط مضمون فكري من هذا المؤتمر ، يحتمل أن يكون نظرية للفكرة التي بررتها مناقشاته وقاعدة ايديولوجية يقوم عليها كفاح الشعوب التي تعارفت فيه ومن المعقول جداً أن نرى صلة بين هذا الكتاب وعرض الصحافي الباريسي لأنهما يلتقيان في نقطة اهتمام الاستعمار بكل ما ينشأ ، في النطاق السياسي والفكري ، عن مؤتمر باندونج ، مع كل ما يتخذه من احتياطات بهذا الصدد : فاهتمام الاستعمار بشيء يتلاقى حتما في نقطة معينة مع احتياطه منه .

وإذن فليس من ترف الحديث أن نقول إن كتاباً من طبيعته أن يثير اهتمام الاستعمار لا بد أن يتلاقى مع احتياطاته منه .

وإذا صح لنا ان نقرر هذا بمقتضى الظروف التي تحيط بالواقعة والشروط التي يجري عليها الصراع الفكري ، فإننا لا نغلو في نظرنا الى الأشياء ، عندما نقدر أن عرض الصحافي الباريسي هو بالضبط نقطة الالتقاء التي تمثل اهتمام الاستعمار بكتاب نوهت به مراصده والاحتياطات التي يجب أن يتخذها ضده .

وما هذه الاحتياطات ؟ وكيف يمكن أن نرى أثرها في عرض الصحافي الباريسي ؟

يجب أولاً أن نقدر ، أن نذكر مبررات هذا التقدير كي لا نتورط في إطالة لا لزوم لها هنا ، يجب أن نقدر أن الاستعمار كان على علم بالطريق الذي سيسلكه صاحب الكتاب عند وصوله إلى العاصمة العربية التي أشرنا إليها وهذا استنتاج جد بسيط بالنسبة للاستعمار لأنه قدر تقريباً جميع الظروف التي تحيط بالمؤلف .

وإذن فليس من الغلو في شيء أن نرى في وصول الصحافي الباريسي إلى نفس العاصمة وفي زيارته لنفس المصلحة ليقدم لها عرضه الغريب قبل بضع أيام من وصول وزيارة صاحب الكتاب شيئاً قدرته ضرورة الصراع الفكري بالنسبة لهذا الكتاب .

وهذا أمر سهل تصوره : فإذا أخذنا في اعتبارنا على ضوء ما سلف توضيحه في زيارة الصحافي الباريسي وما يمكن أن تثير من نقط استفهام ، بسبب الصورة التي قدم فيها عرضه الغريب كأنما كان يهدف إلى إحاطته بالشبهات ، ويستحث حوله الشكوك تبين لنا أن هذه الأشياء كلها بما فيها من شذوذ تكوّن في الواقع مرآة حرمان من نوع خاص ، لأن هذا الشذوذ هو نفسه مصدر الكف والحرمان .

وحتى ندرك ذلك يجب أن نجمع هذه العناصر كلها كما تتجمع فعلاً الآثار التي خلفتها زيارة الصحافي الباريسي وستخلفها زيارة الكاتب بعده إلى نفس المصلحة ، يجب جمعها في عملية ذهنية واحدة وفي سياق نفسي واحد .

إن مدير المصلحة الذي زاره صحافي يعرض عليه « مساهمة فيلسوف فرنسي في ابراز فكرة باندونج » ثم يزوره صاحب كتاب يتصل بالضبط بهذا الموضوع ، لا يمكنه عادة ، أن يفصل ، في عقله وفي نفسه هاتين الزيارتين .

وهكذا تصبح تلقائياً ، زيارة الصحافي مقدمة لزيارة المؤلف ، ولكنها تشع دوافع الحرمان على ما تقدمه ، وإذن فلا مبالغة في القول بأنها مقدمة مقصودة بجميع تفصيلاتها المشبوهة ، أي بجميع تفاصيلها المشمة للكف والحرمان لسد الطريق في وجه كتاب أفلت ، في ظروف معينة لا يتسع المجال إلى شرحها ، من

رقابة الاستعمار المباشرة ، حيث لم يبق في استطاعة الاستعمار إلا أن يلجأ إلى الوسائل العلمية لسد الطريق في وجهه •

وليس من الصعب أن نتصور الأثر العقلي ــ النفسي الذي خلفه ، بهذا الصدد ، الصحفي الباريسي أثناء زيارته بالعاصمة العربية، ونيودلهي وبجاكرتا••• أي على طول الخط الذي من شأن كل كتاب يتصل بباندونج أن يتبعه في حالة انتشاره الطبيعي •

إن المتحدثين معه خلال هذه الزيارات ، ما كانوا لينخدعوا بعرضه الغريب ، وهم يعلمون أن الفلسفة ليست بضاعة يعرضها في الأسواق صحافي يقوم بدور السمسار ، ويعلمون أنه لا يوجد فيلسوف ، فرنسياً كان أو غيره ، يعرض نفسه بهذه الطريقة المحتقرة •••

والصحفي نفسه ، يعلم هذا : فحينما يقوم بدور السمسار فليس ذلك في الواقع لعرض أفكاره ولكن لتشويه أفكار معينة ، وهذا من صميم الصراع الفكري ، من نبعه ، ومن منطقه ، ومن أسلوبه •

إن السمسار الذي يأتي بعرض غريب كالذي أتى به الصحفي الباريسي لا يمكنه أن يخدع متحدثيه ••• هذا اذا قسنا بمقياس العقل ، وأما إذا قسنا بمقياس النفس فربما قلنا إنه خدعهم فعلاً بما خلف في نفوسهم من دوافع لا شعورية تؤدي مفعولها تلقائياً ، في الوقت المناسب •• على طريقة القنبلة الزمنية التي تنفجر في وقت معين • أي عندما يأتي بعده صاحب الكتاب •

ومما يجب ملاحظته ، على الأقل بالنسبة للعاصمة العربية هو أن « العروة الوثقى » مهدت لهذه المقدمة النفسية ، حينما أشارت الى « الكاتب الفرنسي الذي أعتنق الاسلام » كما بينا ذلك في فصل سابق •

وهكذا يتم تركيب لمرآة كف بجميع شروطها ، ليكون فيها كتاب معين ، موضوع الإلقاء للدوافع الحرمانية ، ويكون الصحفي مصدراً أول لهذه الدوافع،

وهو يشعر بذلك ، بينما يكون صاحب الكتاب نفســه ، ومن حيث لا يشعر ، مصدراً آخر • أو إذا ما استخدمنا لغة بافلوف ، يكون شخصه بمثابــة المثير الشرطي ، بما ان زيارته كانت تحركاً تلقائياً ، آلية انعكاس الكف الخفي الــذي خلقته زيارة الصحفي •

ولسنا هنا نبحث القضية إلا من جانب واحد ، هو جانب الأفعال المنعكسة الشرطية التي تلقيها مرآة الكف على فكرة معينة •

ومع ذلك فمن الممكن أن تحدث للفكرة وهي في طريقها على خط طانجة ـ جاكارتا ، انعكاسات أخرى لا صله لها بالصحفي ، تنتجها مصادر أخرى مزمنة ليست موضوع هذا العرض ، الذي نخصصه للمــرآة ووظيفتها في الصراع ، الفكري ، لنبين كيف أن تركيبها يتنوع بالنسبة للموضوع الواحد ، وبالنسبة للفكرة الواحدة ، تبعاً للظروف ، كما بينا ذلك في الفصول السابقة •

فلو أننا راجعنا ذكرياتنا في مدى ربع قرن مثلاً ، أو يزيد سيبدو لنا هذا التوزيع في خطط الاستعمار بكل وضوح مع محافظته على المبادىء التي حللناها فيما سبق •

فيمكننا مثلاً أن نقف ، حوالي عام ١٩٣٩ ، عند فكرة « الوهابية » لأنه كان لهــا دوي في الغرب ، لا تعرف البلاد العربيــة مداه ، لأننا بحكم تطورنا الاجتماعي لم ندخل بعد لعالم الأفكار ، فلا ندرك قيمتها حتى تعكسها لنا مرآة الغرب ، وليس طبعاً من مصلحة الغرب أن يعكس لنا الأفكار التي يريد تحطيمها •

وفكرة « الوهابية » قبل عام ١٩٣٩ ، كانت تبدو للاستعمار مليئة بالمخاوف لأنها كانت تمثل في نظره مركز الثقل في الصراع الفكري في البــلاد العربيــة الإسلامية ، وكان دوماً يفكر في وسائل التخلص منهــا حتى خلصه منهــا فعلاً البتــرول •

فاستخدمت انجلترا وسائل القوة لتحطيم عبد العزيز : حاولت أن تؤلب

عليه خصوم ملكه ، مثل ابن رفاده والدرويش ، كي تمتص قواته الفتية بثورات متكررة •

غير أنها كانت تحاول أولاً وقبل كل شيء أن تحطم الفكرة ذاتها التي قام عليها هذا الملك ، وتأسست عليها الدولة السعودية الفتية ، فكانت تطبق من أجل ذلك خطة يمكن أن نسميها « خطة المحامي المورّط » الذي يورّط موكله بدعوى أنه يقوم بالدفاع عنه •

فكان من يتحدث باسم الحكومة في لندن ، لا يترك فرصة تمر دون أن يذكر بحرارة الصداقة العظيمة التي تكنها انجلترا لابن سعود ، مثل الفكرة الوهابية التي أنهت دورها « كفكرة مجردة » حوالي عام ١٩٢٥ ، وبدأت دورها الجديد « كفكرة متجسدة » منذ ذلك العهد ، أي منذ تأسيس الدولة السعودية في حدودها الحالية •••

حتى إن الملك العربي ـ أصدر (حوالي عام ١٩٣٣) في نداء وجهه للعالم، كعادته بمناسبة الحج ، تصحيحاً ذا مغزى في هذا الصدد •

وإذا كانت طريقة « المحامي المورّط » مستخدمة من ناحية في ميدان السياسة ، أي في ميدان الأفكار المتجسدة ، في البلاد المستعمرة ، فانها تطبق من الأخرى في ميدان الأفكار المجردة •

ويجب ألا نغفل في هذا السياق ، ملاحظة نرى فيها بعض الأهمية فيما يتعلق بـ « المحامي المورّط » : فان هذا الكائن الغريب قد يكون موجوداً بالفعل تحت تصرف مراصد الاستعمار، وأحياناً أخرى قد يكون من الواجب صنعه بالخصوص•

فإذا أخذنا ، فيما سبق فكرة كافية عن الصورة الأولى ، يجب أن نكوّن أيضاً فكرة عن الصورة الثانية •

فلنتصور مثلاً أن شاباً قد أنهى دراسته العليا في عاصمة عربية ورجع ناجحاً الى بلاده الشقيق ، حيث ترغب حكومته في توظيفه في وزارة الخارجية •

ولكن الشاب اندفع بدافع ثقافته فنشر مقالات للتعريف ببعض الأفكار التي تثير اهتماماً بليغاً من طرف مراصد الاستعمار كالأفكار التي تتصل بمؤتمر باندونج ، ثم أبدى رأيه في بعض المواقف السياسية التي يريد الاستعمار عادة إحاطتها بالسر فهذا الشاب الجسور يلاحظ مثلاً أنه « في الوقت الذي كان الاستعداد يجري فيه لعقد مؤتمر التضامن الآسيوي ـ الأفريقي في كوناكري دعا الرئيس نكروما إلى مؤتمر للشعوب الأفريقية في أكرا » .

فهذه الملاحظة تمثل بالضبط ما أطلقنا عليه ، خلال هذه الدراسة ، « إشارة خطر » الإشارة التي تعلن بأن معركة قد بدأت في جبهة الصراع الفكري ... لأن مراصد الاستعمار تلقتها قبل أن تبلغ إلى وعي الشعب المستعمَر ... أو شبه المستعمَر .

فماذا سيحدث لهذا الشاب النبيل ؟

ان مراصد الاستعمار ستتدخل أولاً وقبل كل شيء حتى لا يحصل على الوظيفة التي كان ينتظرها بوزارة الخارجية ..

ثم بكل هدوء وبرود فإنها ستعرض عليه وظيفة أخرى يتقاضى منها ، إذا ما قبل ، ماهية تزيد على ما يتقاضاه موظف مبتدىء بوزارة خارجية ، فتعرض عليه مثلاً مائة وخمسين جنيهاً ... في مقابل عمل بسيط ، إن لم نقل مقابل عمل صوري ، في سفارة تمثل مصالح معينة ، لا تتفق مع فكرة باندونج ولا فكرة التضامن الافريقي ـ الآسيوي ، ولا فكرة بناء حضارة كحل لمشكلة البلاد المتخلفة ، ولا أية فكرة من الأفكار التي دخل هذا الشاب من أجلها المعركة ...

وإذاً ، وفي حالة ما إذا قبل هذا الشاب النبيل العرض السخي الذي قدم له، نكون أمام احتمالين :

أولهما هو أن هذا الشاب سيشعر بضيق الموقف : فيعدل سلوكه طبقاً لذلك،

ويكف قلمه ولسانه عن أفكار • تحرم صاحبها من منصب يستحقه بوزارة الخارجية •

وثانيهما ، هو أنه يستمر أو على وجه أدق ، ربما تحمله السفارة التي توظفه على أن يستمر في دفاعه عن تلك الأفكار •

ففي الاحتمال الأول تكون السفارة قد حلت المشكلة بوجه من الوجوه •

أما في الاحتمال الثاني فإنها تكون صنعت من شاب مثقف نبيل « محامياً مورطاً » للأفكار التي دخل من أجلها المعركة •

وهذا الاحتمال الأخير أقرب من أسلوب الصراع الفكري ومن واقعية الاستعمار فيه ومن حقيقته المؤلمة ، التي لا ندركها ما دمنا نفقد المقاييس المطلقة التي تدل على قيمة الأفكار مباشرة ، في حد ذاتها دون ربطها بأي شخص يدافع عنها دفاع المؤمن بها (مثل الشاب الذي ذكرنا قصته) أو يدافع عنها دفاع « المحامي المورّط » •

ومهما يكن الأمر فلا غرابة إذن في أن يجد كتاب ، يتعلق بموضوع هام مثل باندونج من يقوم بالدفاع عنه بكيفية وفي ظروف معينة ، حتى يكون لدفاعه الأثر المورّط للكتاب[1] في بعض الأوساط الدبلوماسية التي كان من المتوقع أن تهتم به •

وليس موضوعنا عندما يقع هذا ، أن نعلق على نضج هذه الأوساط ، ولكن يجب أن نعلم كيف يستخفها الاستعمار فيطبق عليها ما يطبقه في الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، أي في البلاد التي تتفق على أن الناس فيها لا يدرسون الأفكار من خلال تأمل شخصي مباشر ، بل من خلال الانعكاسات التي يلقيها عليها « محام مورط » أو في الصورة التي تعكسها لنا « مرآة حرمان » •

---

(١) يرى المؤلف انه في غنى عن ذكر التفاصيل الواقعية التي تفسر هذا المعنى : والا أوردنا لكل سطر من هذا البحث قصة تشرحه •

وقوة الاستعمار في هذه الحال ، هو أنه يطبق طرقاً بسيطة كشفت تجارب بافلوف ، عن صلتها بالتركيب النفسي عند الأفراد وهمّ جبلس بتطبيقها العلمي في ميدان السياسة في عهد هتلر .

وإنما الفرق بين الاستعمار وبافلوف هو أن الكائنات التي يجري عليها العالم الروسي تجاربه كانت حيوانات صغيرة ، مثل الكلاب والفئران ، بينما الاستعمار يجريها على علماء ودبلوماسيين ورجال سياسة الخ ..

ويجب أن نعلم أن فن بافلوف يطبق في كل وسط إنساني لم يتم نضجه الفكري ، أو لم تتخذ في توجيه ثقافته الاحتياطات اللازمة ضد الانحراف الذهني.

ومن أخطر وجوه هذا الانحراف ما اطلقنا عليه اسم « الذرية » .

فأي إنسان لا يحكم على الأمور بناء على تفكير شخصي مباشر يتعرض لأن يصدر أحكامه طبقاً لما يتلقاه عن هذا الواقع بطريق الإيحاء لا طبقاً لما في الواقع من حقيقة ظاهرة أو كامنة ، لأنه لا يحاول أن يجمع عناصر الحكم المختلفة في عملية ذهنية واحدة لما عنده من ميل مرضي إلى « الذرية » .

« فالمحامي المورط » و « الصداقة المورطة » و « مرآة الحرمان » هي في الواقع النقاط المختلفة في الآلة التي تلعب عليها أصابع ماهرة في الموسيقى الخاصة بالصراع الفكري .

ولكن لا يستطيع التوقيع على هذه الآلة الدقيقة من ليس له دراية بما يمكن أن نسميه رياضة أو جبر الأفكار ، ومن ليس له إلمام بالأفكار ككائنات حية تؤدي دورها في شروط عضوية معينة ، ولا تقوم بأي دور بدونها ، بل تفقد الحياة بفقدها : تصبح جثثاً هامدة لا صوت لها ، ولا قيمة لها في الإيقاع الذي يمثل موسيقى الصراع الفكري في العالم .

الفصل السادس

حياة الأفكار وقيمتها الرياضية

يظهر أحياناً في سلوك الاستعمار من البلادة ما يجعلنا نشعر بأن كيده ، هو في النهاية ضعيف مثل كيد الشيطان .

ولكن يجب ألا نغتر بهذا المظهر مهما يكن فيه من الصحة ، كما يجب علينا أن نقدر لكيد الشيطان في كل وقت تقديره .

يجب أن نعترف في كل لحظة ، بأن الاستعمار فنان بارع في موسيقا الصراع الفكري ، فهو يبدع في سمفونية هذا الصراع إذ هو ينسجها من الخيال أو من لعبة الظل كما بينا في الفصول السابقة ، ثم يبلغ إيقاعها الساحر عن طريق الإيحاء، لأنه يجيد التوقيع على « النقاط » التي تسحر الألباب ، فتعطي لفنه كل قيمته الفنية ...

فهو يعلم أنه يكفي ، للتشكيك في فكرة أن يشوه منطوقها اللغوي ، أي الكلمة التي تتضمن معناها الحرفي ، أو الشعار الذي يؤدي معناها بالطريق الرمزي : فالكلمة أو الشعار قد يمكن أن يصبح كلاهما مركز إشعاع حرماني بالنسبة للفكرة التي تعبر عنها تلك أو يشير إليها هذا ، كما يكون أحياناً الكاتب نفسه ، مركز إشعاع حرماني بالنسبة إلى كتابه ، في بعض الظروف كما بينا هذا في الفصول السابقة .

فلو كان لفكرة كتاب شعار معبر عنها بصفة رمزية لرأينا الاستعمار حينما

تنوه مراصده بظهور الفكرة يبــادر الى طمس تلك الرمزية بما يناسب مــن الوســائل •

فلو كان لدينا للتدليل على محاولة كهذا عبارة كـ : •• « محور طنجه ــ جاكرتا » تعبر عن فكرة كتاب وتشير إلى الاتجــاه الذي ينشده لرأينا فعــلا الاستعمار يقوم بمحاولة ضم هذا المصطلح إلى قاموسه السياسي ، فيحاول مثلاً جمع مؤتمر سياسي بمدينة طنجة ، هدفه على نقيض ما يهدف إليه الكتاب ، وبما يسلط من الأضواء على مدينة طنجة خلال مؤتمر تشرف عليــه دول استعمارية تصبح كلمة طنجة مركز إشعاع حرماني تعكسه على ما يتصل بها في الميــدان السياسي وتصبح العبــارة « محور طنجة ــ جاكرتا » كلهــا تتلقى من ناحيــة الإيحاءات التي تلقيها عليها كلمة طنجة وتعكسها من ناحية أخرى على كتاب جعل شعاره من تلك العبارة •

ولكن لماذا لم تتم محاولة الاستعمار في هذا الاتجاه ، بعد أن أعلنت الصحافة بانعقاد مؤتمر طنجة في شهر إبريل سنة ١٩٥٧ ؟

ذلك لأن الظروف ليست كلها في يد الاستعمار ، فقد يحدث أن تختل بعض الشروط في تنفيذ خططه ، وهذا لا يعني طبعاً أن المعركة انتهت وإنمــا تغيرت ظروفها •

ولكن الشيء الذي لا يتغير هو المقاييس المنطقية والحقائق النفسية التي تطبق في معركة مهما تكن ظروفها الخاصة •

ومن الأشياء التي لا تتغير في الصراع الفكري ، حقيقة « الفكرة » ذاتهــا ككائن حيوي له وحدة عضوية لا يمكن أن نزيد فيها شيئاً ولا أن ننقصه ، دون أن تتغير شروط الحياة بالنسبة إليها كما أننا نغير شروط حياة أي حيوان ، لو أننا أضفنا له عضواً زائداً ، مثل الرأس الذي أضافه بعض علماء الإتحاد السوفيتي إلى كلب ، أو أنقصنا منه عضوا •

فالكائن الحي كائن كما هو ، وإن أضيف إليه شيء أو بتر منه شيء ، فإنه لا يبقى ذلك الكائن •

وهذه الحقيقة تطبق على الأفكار • ككائنات حية ، ويمكننا الآن أن نلقي هذه الاعتبارات ، على كيان الأفكار : فلو أننا قدرنا أن فكرة ما تبلورت في شعار معين ذي تركيب ثنائي تشير إلى عنصريه بحرفي (أ) و (ب) فإنه يمكننا أن نضع له معادلة تعبر عن وحدته العضوية وعن ذاتيته هكذا :

شعار = أ + ب

وبما أن الفكرة مرتبطة بهذا الشعار بربط عضوي ، يمكننا أن نعبر عنها بنفس المعادلة هكذا :

فكرة = أ + ب

ولنفترض الآن أننا أخذنا العنصر (أ) وأدخلناه في تركيب جديد حيث يكون بجانب عنصر جديد ذي شبهة هو (ت) مثلاً ، حيث نستطيع أن نرمز الى هذه العلاقة الجديدة بالمعادلة الآتية :

تركيب جديد = أ + ت

وحيث أن هذا التركيب يتضمن خصائص العنصرين اللذين يكونانه ، فإنه ينطوي ضرورة على كل الآثار النفسية التي يحملها العضو المشبوه فيه (ت) ويعكسها على كل أجزائه ، أي على (أ) بالذات ، وهكذا يصبح هذا العنصر مشتبهاً به ، بحكم علاقته الجديدة فيحيل نوعاً من العدوى النفسية الى التركيب الأول (أ + ب) وهكذا يصل الاستعمار عن طريق علاقات مصطنعة كالتي وضحناها هنا ، وبعد سلسلة معينة من الانعكاسات المشروطة إلى المساس بالفكرة التي يريد إصابتها ، إذ يصلها الإشعاع النفسي المقصود عن طريق شعارها ومنطوقها •

وهذه الكيمياء الخاصة ليست جديدة إلا من الناحية النظرية لأن علم النفس، وعلم النفس التجريبي منذ بافلوف ، بوجه خاص هو الذي حدد قواعدها ، وأما من الناحية العملية فهي قديمة ، نجد أثرها في وقائع كثيرة من التاريخ الإسلامي

مثلاً ، فمنذ المراحل الأولى من هذا التاريخ نجد أحداثاً سياسية هامة تفسر على ضوء هذه الكيمياء .

هذه الاعتبارات تتصل بحياة الأفكار من الناحية النفسية ، وتعبر عن تأثير العلاقات في تحديد الدور الذي تقوم به الأفكار كمجموعة معينة ، أي طبقاً لعلاقاتها في نطاق دائرة أو في اطراد .

ولكن هناك اعتبارات أخرى ، يمكن أن نسميها اعتبارات جبرية ، تتصل بدور الأفكار كأفراد مستقلة .

إن لكل فكرة كياناً مستقلاً ، ووحدة قائمة بذاتها ، تؤثر بقدر ما تبقى محتفظة بوحدتها ، كقيمة منطقية يمكن التعبير عنها طبقاً لقواعد رياضية خاصة بالأفكار .

إن لكل فكرة (ف) قيمة معطاة هي (ك) مثلاً وهذا الفرض يمكن أن يكتب كما هي الحال في علم الجبر :

$$ف = ك$$

وهذه العلاقة تعبر عن القيمة الرياضية للفكرة ، ولكن لرياضة الأفكار قواعد خاصة ، فإذا كانت القيمة العددية في الرياضة العادية يمكن أن تزداد بجمعها إلى أخرى ، فان القيمة الخاصة بفكرة تنقص عموماً بمجرد أن نضيف لها قيمة أخرى ، حتى لو كانت القيمة المضافة إيجابية :

$$ت > \text{(أكبر من)}\ صفر$$

فإذا أضفنا هذا الحد مثلاً ، إلى العلاقة السابقة يكون لدينا قيمة فكرية جديدة هي :

$$ف = ك + ت$$

فنشعر أننا زدنا في قيمة (ف) الأصلية ، ولكن ليس الأمر كذلك بصورة

طبيعية ، كما هو شأن القيمة العددية ، فالحد (ت) يمكن أن ينقص من قيمة الفكرة رغم أنه إيجابي ، أما لو كان سلبياً فمن باب أحرى ، ويمكن أن نفهم هذا أو نلخص هذا في صورة فقهية : إن الفقهاء يحددون ، في شروط الوضوء ، مايجب أن يكون عليه الماء لصلاحيته للوضوء ، فهم بذلك كأنهم يحددون قيمة مفهوم معين « م » أو الماء الطهور بصلاحيته (ص) للوضوء .

فيمكن إذاً أن نشير الى قيمة هذا المفهوم الفقهي هكذا :

م = ص

ولكن نعلم من مشايخ الفقه أن كل دنس (د) يحدث في الماء يجعله غير صالح للوضوء ، أي أن قيمة (م) نقصت باضافة حد سلبي ، وهذه حقيقة بديهية يدركها عقل الفقيه وغير الفقيه .

ولكن نعلم من مشايخ الفقه أيضاً ، أننا لو أضفنا شيئاً من العطر أو الطيب، أي لو أضفنا حداً إيجابياً فإن الماء يفقد أيضا صلاحيته للوضوء ، أو يفقد قيمته كمفهوم فقهي .

فإذا كانت هذه الاعتبارات صحيحة بالنسبة إلى مفهوم من مفاهيم الفقه ، هو الماء الطهور ، فان صحتها أعم بالنسبة للمفاهيم العامة .

وعليه يجب أن نراعي في الصراع الفكري كل ما يتصل بكيان الأفكار كأفراد مستقلة بوحدتها العضوية ، ككائنات حية لا تقبل القسمة ولا الضرب .

والاستعمار يطبق طبعاً هذه الحقائق ، فهو تارة يحاول تجزئة الفكرة كأنه يريد تقسيم طاقتها الانفجارية وأحياناً يحاول على العكس : أن يجري عليها نوعاً من الضرب يجعلها مقحمة في عدد أفكار ثانوية تضيف إلى حجم الفكرة الأصلية عناصر فكرية خامدة ، لا أثر لها سوى إضعاف سلطانها على العقول ، كما لو أننا لففنا سن المسمار أو حد المنقار بلفائف من الورق أو القماش حتى لا يؤثر فيما نريد نقره أو ثقبه من الخشب .

ولقد رأينا مثلاً في باندونج كيف طبقت هذه الرياضة الفكرية في صورة « الضرب » فيما يتصل بالفكرة التي تتضمن المباديء الأساسية الخمسة Paneh Shila التي تكون وحدة فكرية قامت بدور هام في توجيه سياسة التعايش والحياد قبل المؤتمر ، خلال مداولات نيودلهي وبكين ، وفي تحضير المؤتمر ذاته ، فكان إذن من الطبيعي أن تكون هذه المبادىء (الفكرة) أي الأساس النظري الذي يقوم عليه بناء المؤتمر ، ولكن عندما وصل وفد إحدى الدول الآسيوية المشتركة ، بذل كل جهده ليكون عدد هذه المبادىء سبعة أو عشرة ويمكن أن تتصور هذه الإضافة المقصودة كعملية تشتيت للقاعدة .

ويمكن أن تتابع هذه الاعتبارات في مؤتمر القاهرة ذاته ، أنه لم يكن من مصلحة الشعوب الأفريسيوية الإكثار من المقترحات ، لأن هذا الإكثار يزيل أولاً مضاء الفكرة الأساسية ثم يكون عقبة في سبيل التطبيق ، وهذا وذاك في صالح الاستعمار طبعاً ، ولا يخفي ما للاستعمار من الحضور في كل مداولة مثل مؤتمر باندونج أو مؤتمر القاهرة ، حضوراً خفياً أو ظاهراً . تصل عن طريقه الإيحاءات المناسبة لتطبيق القواعد الخاصة بكيمياء وبرياضة الأفكار ، فتطبق أحياناً في صورة « المزلقة » وأحياناً في صورة « الاستبدال » وأخرى في صورة « البتر » .

« فطريقة المزلقة » تطبق عندما يكون الهدف أن لا يقف البحث عند فكرة معينة ، فتطرق خلال المناقشة أفكار جديدة بالتوالي ، بحيث لا تنتهي المناقشة إلى أية نتيجة عملية ..

وطريقة « الاستبدال » تطبق عندما يرى الاستعمار من مصلحته بينما تكون المعركة محتدة حول فكرة معينة ، أن يطلق في حلبة الصراع ، فكرة جديدة تكون أقل ضرراً بالنسبة لمصلحته .

أما طريقة « البتر » فإنها تطبق عندما توشك مناقشة أن تأتي بنتيجة في موضوع هام في صحيفة وطنية مثلاً ، وإذا بمحرري الصحيفة (المادية للاستعمار) يقلبون الصفحة بكل بساطة ، وتبقى المناقشة معلقة دون نتيجة فيجد الكاتب نفسه

فجأة مجرداً من السلاح ، كأنما يد خفية نزعت من يده القلم ، في الوقت الذي تدخل المعركة في دورها الحاسم .

والخطر الذي يتهدد مؤتمراً دولياً كمؤتمر باندونج يكمن في ألا يأخذ دعاة المؤتمر حذرهم من هذه الطرق ، ومن الواضح مثلاً أنه عندما يقدم اقتراح بإنشاء (بنك للمادة الأولية) فيخرج من مؤتمر دولي بقرارين أحدهما « تأسيس هيئة للانشاء والتعمير » والآخر « إنشاء بنك للتبادل الاقتصادي الأفريقي الآسيوي » فإن الفكرة الأولى المقدرة بالنسبة إلى طور اقتصادي محدد ، والى إمكانيات معينة في البلاد الافريقية ــ الآسيوية ، وهي تهدف في أساسها إلى تخليص المادة الأولية المتوفرة في تلك البلاد من رقابة العملة المفقودة فيها فهذه الفكرة تختفي تماماً في القرارات النهائية وتترك مكانها إلى فكرتين ، ثنائيتين ، كل واحدة تعيد إلى العملة سلطانها ورقابتها على سوق المادة الخام ، أي تناقض الفكرة الأولى في أساسها : وهذه خطة قد طبقت فيها بنجاح طريقة « الاستبدال » وطريقة « الضرب أو الإكثار » .

ولا شك أن أي مؤتمر دولي يكسب كثيراً لو أنه حين ينعقد يؤلف لجنة « للنقد الذاتي » وبوجه خاص لنقد التقارير في صيغتها النهائية ، حتى لا يترك للاستعمار ذريعة ومنفذاً يبلغ منها إلى « تعقيم تلك القرارات » .

ولا بد أن ندرك أن « الفكرة » التي يعبر عنها مشروع إنشاء « جائزة منطقة السلام » لا تؤدي أبداً مفعولها ولا تقوم بدورها عندما تصب في قرار نهائي يضع كلمة « سلام » ــ وهي مقصودة بالذات كشعار خاص لمداولات تجري ــ تركيب معقد كهذا : من أجل الحرية والاستقلال والصداقة والسلام .

فهذه الكلمات الاربعة مجموعة لا تقوم بدور كلمة « سلام » وحدها كما أن صاروخاً ركب من أجل الوصول إلى القمر لا يصل إليه إذا ركبت فيه صواريخ موجهة الى المريخ وزحل[١] ...

---

(١) ولا شك أن مؤسسي « جائزة نوبل للسلام » يقدرون قيمة الكتاب كما يجب فانهم لم يفكروا باضافة كلمات « انسانية » وحرية وديموقراطية مثلا في عنوان جائزة نوبل ولكن هذه الحقائق لا زالت ــ مجهولة على محور طنجة ــ جاكرتا ، وفي البلاد العربية بوجه خاص .

ولا شك في أن أي مؤتمر دولي ، ينعقد من أجل تحرير البلاد المستعمرة أو البلاد التي وطئها الاستعمار ، يكسب كثيراً لو أولى نظره هذه الاعتبارات ، ولو أولى تطبيقها لجنة مخصصة للنقد الذاتي كي يحتاط بهذا النقد من طرق التعقيم التي ذكرناها ، والتي لم نذكرها كلها خشية الإطالة ، فهناك مثلاً طريقة التعطيل التي تلعب دوراً هاماً في الصراع الفكري لأنها تعلق تحقيق قرار على شكليات لا قيمة لها • أو تعطل توزيع كتاب : فعندما يكون كتاب قد أنجز طبعه ببلد عربي قريب ، منذ ستة أشهر ، ولم يصل بعد إلى عاصمة عربية مثل القاهرة ؛ فهذا يعني أن الكتاب دخل عملية تعطيل •••

إن ظروف الصراع الفكري ، في أي بلد يكون فيه نفوذ خفي أو ظاهر للاستعمار أكثر غرابة مما تتصورها عادة ، فلا يمكن أن يتناولها الوصف المحدود بطبيعة الحال ، لأنه لا يمكن أن ينقل كل الألوان التي تشملها التجربة بينما هذه التجربة نفسها لا تحيط إلا بمقدار ضئيل من واقع الصراع الفكري في حقيقته ؛ ولا غرابة في أن صاحب التجربة يعلم بعض الأشياء من هذا الواقع الزاخر المتنوع ولكن يغيب عليه أكثرها ، لأن الاستعمار يسدل دائماً الظلام(كما بينا فيما سبق) على عملياته في هذا الميدان ؛ حتى يبقى مسيطراً على الموقف ؛ ولو كشفت الصدفة فجأة عن تفصيل من تفاصيل هذا الصراع فسوف يبقى في إمكانه أن يسلم بهذا التفصيل للخصم ؛ ويدخل الباقي في الظلام ، كما تسلم الحية بجزء من ذيلها وتدخل جحرها لتنجو بذاتها ••

ولا يمكن وصف هذه التفاصيل كلها ولو كانت على مرأى العين كما يصعب وصف بيت العنكبوت خصوصاً إذا كانت خيوطه تأتي من بعيد •

هذه هي حقيقة الصراع الفكري وتلك هي لغته ، لغة صامتة ليس لها من معنى واضح إلا بالنسبة لمن عاش تجربة شخصية •

مُلخّص

إننا قد أنهينا هذا العرض ، ولم نقل فيه إلا جزءاً بسيطاً مما تتضمنه تجربة شخص ، وحري بنا أن نقول إن تجربـة الشخص مهما تكن ، ليست إلا جزءاً ضئيلاً من واقع الصراع الفكري .

ومهما يكن من أمر ، فإن القول محدود بطبيعته في موضوع كهذا ، لأن هناك موضوعات محرمة ، قد أحاطها العرف بسياج من الاعتبارات التي لا تترك مجالاً كبيراً إلى القول . لأن الناس الذين أشرنا اليهم في هذه الصفحات ، والذين تعرفنا عليهم ودرسنا مواقفهم العامة في بلاد مستعمرة ، خلال ما يزيد على ربع قرن ، لا زالوا على قيد الحياة ولولا ضرورات الصراع الفكري ذاته لما أشرنا إلى أحد ولا ذكرنا تفصيلاً من التفاصيل التي تتضمنها تجربة شخص معين .

ولكن الضرورات تبيح المحظورات ...

والأفكار ليست منفصلة عن عالم الأشخاص ، على طريقة « مثل أفلاطون »، بل إن ملحمتها تجري كلها على الأرض، حتى لا يمكننا ــ مهما تحرينا من التجريد ــ أن نفصل مغامرة « فكرة » عن مغامرة صاحبها ، فصلاً تاماً ولو لخصنا هـذه الاعتبارات في جملة لقلنا : إن الاستعمار يسعى أولاً أن يجعل من الفرد خائناً ضد المجتمع الذي يعيش فيه ، فإن لم يستطع فإنه يحاول أن يحقق خيانة المجتمع لهذا الفرد على يد بعض الأشرار .

ومهما يكن من أمر ، فان هناك حقائق لا يملك النطق بهـا إلا من واراه

التراب ، وحصنت أقواله الموت . كما أن هناك أقوالاً لا تقال في كل الظروف ، وفي مثل هذا الموقف يتعرض الضمير لنقاش حرج ، عندما يكون المرء بحيث يستغل الاستعمار كلامه ، كما يستغل صمته فهذه الصفحات تعتبر إذن محاولة للتوفيق بين واجب الصمت وواجب الكلام ، ولعل القارىء الشاب يجد فيها المنبه الذي يلفت نظره الى واقع الصراع الفكري ، ويكفيه أن يفتح عينه لكي يرى بنفسه أمارات هذا الصراع قائمة حوله . وربما يستطيع أن يستخلص من الوقائع المعروضة لنظره ، نتائج لم تلفت انتباهنا ، أو أغفلناها عمداً خلال هذا العرض ، احتياطاً من التطويل ورغبة في الموضوعية .

وكل ما نتمناه هو أن تقوم في بلادنا رابطة من المثقفين لكشف هجمات الاستعمار على الجبهة الفكرية حتى لا تبقى الأفكار معرضة لتلك الهجمات دون نجدة ولا مدد .

فهـــرس

الموضوع		الصفحة